محمد

نظرة عصرية جديدة

بأقلام :

الدكتور محمد محمد الفحام
شيخ الجامع الأزهر

الدكتور عبد الحليم محمود
وزير الأوقاف في مصر

خالد محيي الدين

الدكتور أحمد شلبي

طالب الحسين الرفاعي

الشيخ عبد الرحمن النجار

الدكتور محمد الطيب النجار

محمد عمارة

عبد المجيد وافي

الدكتور جودة عبد الله مصطفى

حسنين كروم

الدكتور محمد خلف الله

عبد العزيز حافظ دنيا

تقديم

يمثل محمد ﷺ شخصية إنسانية باهرة ، هي من أعظم شخصيات التاريخ الانساني في مختلف العصور ، وذلك بالإضافة الى المكانة الدينية المقدسة التي يحتلها في قلوب ملايين المسلمين في شتى أنحاء الأرض ، وفي هذا الكتاب محاولة لتقديم نظرة عصرية جديدة الى شخصية الرسول العربي ، ويشترك في هذه الدراسات مجموعة من أكبر المفكرين والعلماء في الوطن العربي ، على رأسهم الدكتور محمد الفحام شيخ الجامع الأزهر ، والدكتور عبد الحليم محمود وزير الأوقاف في مصر ، والسيد خالد محي الدين ، السياسي المصري المعروف ، وغيرهم من العلماء وأساتذة الجامعة والفنانين والصحفيين . ولا شك أن هذه الدراسات المتنوعة حول شخصية الرسول العربي سوف تلقي الكثير من الأضواء الجديدة على هذه الشخصية الدينية والانسانية والتاريخية الفذة من خلال المشاكل العصرية والتقدم الذي أحرزته الدراسات الفكرية المختلفة في شتى المجالات .

الناشر





مؤامرات اليهود ضد محمد

بقلم : الإمام الأكبر الدكتور :
محمد محمد الفحام
شيخ الجامع الازهر

كان النبي ﷺ ينتظر من اليهود أن يكونوا أول المؤمنين به لا أن يكونوا كافر به ، فإن ما عندهم من الأسباب الحقيقية – لو أنصفوا – ما يدفعهم الى القبول أو على الأقل أن يقفوا منه موقف المحايد بعدم معارضة دعوته وبتركها تتابع سيرها في خطها المرسوم ، وهذه العوامل نجمل أهمها فيما يلي :

(١) ان النبي عليه السلام جاء بدعوة كلها سلام لا تبغي ظلماً ولا عداء ولا تريد هدماً ولا فساداً فهي للسلام والإصلاح والخير العام .

(٢) ان اليهود جماعة سبقت لهم دعوة سماوية أساسها التوحيد والإيمان بالرسالات والمعاد ، والقرآن جاء مصدقاً لهم في هذه الأصول التي هي القاسم المشترك بين جميع الأديان السماوية .

(٣) إنه مدح الأنبياء السابقين وقدس كتبهم التي أنزلها عليهم وجعل ذلك شرطاً لصحة إيمان المؤمنين ليبين لهم أن دعوته ليست عنصرية ولا خاصة

فهي دعوة منصفة عامة. قال تعالى في أول سورة نزلت بالمدينة : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » البقرة ١٣٦ .

(٤) إن القرآن الكريم سجل مدح بني إسرائيل لمواقف مشكورة لهم واعترف لهم بالفضل حين يعز على العدو أن يعترف بفضل عدوه ، وحاشا للرسول أن يكون عدواً من هذا الطراز الجائر المتحيز .

(٥) إنه ناداهم بوصف يستوجب استجابتهم للدعوة لو أنصفوا فقال لهم : « يا بني اسرائيل » أي يا ذرية عبد الله يعقوب ، وهو تذكير لهم من غفلتهم عن دينهم الأول الذي ينادي بالأديان جميعاً على نسق ما كان النبي يدعو قوماً للاسلام يقال لهم بنو عبد الله ، فقال لهم : « يا بني عبد الله » إن الله قد حسن اسم أبيكم » يحرضهم بذلك النداء على تحسين أعمالهم كما حسن الله اسم أبيهم . كما ناداهم الله بأهل الكتاب وهو وصف جدير بمن اتصفوا به أن يؤمنوا بالكتاب المنزل مصدقاً لما معهم من كتب ، كما ذكر الله بني اسرائيل بالنعم التي أنعم الله بها على آبائهم وعاشوا هم في ثمرتها وخيرها فكان حقهم أن يشكروها بالإيمان بالله ورسوله محمد .

(٦) إن التوراة المنزلة من عند الله بشرت بمحمد ورسالته كما قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل » (الاعراف ١٥٧) وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بالإيمان بالله وبرسله ، وأخذ أيضاً الميثاق على الأنبياء بالإيمان به خالقاً . قال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » وقد وجد اليهود فيه العلامات المميزة له في دعوته وفي خلقه وفي غير ذلك .

(٧) إن بعض أحبارهم المشهود لهم بالعلم والتقوى قد أسرع بالدخول في الإسلام فكان عليهم أن يتابعوه كما تابعوه في غير ذلك .

(٨) إن الله سبحانه أمر نبيه أن يستقبل الشام في الصلاة كما تستقبل اليهود سواء أكان ذلك امتداداً لاستقبالها في مكة أم أمراً جديداً، فان النبي ﷺ صلى الى قبلتهم نحو سنة ونصف وكان عليهم في هذه المدة الطويلة وبعد هذه الدواعي لتصديقه أن يؤمنوا بـه لكنهم أبوا وأصروا على موقفهم ، بل انهم أملوا من وراء ذلك أن ينحاز هو الى دينهم ويترك دينه . كما قال تعـالى « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » « البقرة ١٢٠ » .

ولقد كان جديراً باليهود إزاء هذه الدواعي أن يؤمنوا بل يكونوا أول المؤمنين أو على الأقل أن يقفوا محايدين حتى يتفرغ الرسول عليه السلام الى تأمين مقامه بالمدينة والاستعداد للاحتمالات التي تأتي من قريش ، لكنهم وقفوا منها موقفاً [illegible] هو العداء ، وسلكوا في سبيل المعارضة كل سبيل ، ولم يسلم منهم من أحبارهم في حياة الرسول إلا اثنان عبدالله بن سلام من بني قينقاع، وعبدالله صوريا الاعور من بني ثعلبة . ولم يكن بالحجاز في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه، وقيل أسلم آخرون ولكنهم قليلون جداً ، قد يكونون من العرب الذين تهودوا وذكر ابن هشام من رؤسائهم (أ) من بني قينقاع عبد الله بن سلام ، وكان اسمه الحصين فلمـا أسلم سماه النبي عبد الله وكان خيرهم وأعلمهم ، وزيد بن اللصيت ، وفنحاص وشاس بن قيس ، وعدي بن زيد .

(ب) ومن بني النضير ، حي بن اخطب ، واخوه ابو ياسر ، وجدي بن أخطب وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق ، وسلام بن ابي الحقيق ، وعمرو بن جحاش وكعب بن الاشرف .

(جـ) ومن بني قريظة كعب بن أسد ، والحرب بن عوف ، واسامة بن حبيب .

وكان من اليهود من هم من بني اسرائيل كالقبائل الثلاث الكبيرة ، ومن دخلوا في الدين اليهودي من العرب ، وتحالف الجميع على صد الدعوة ، ومناهضة الدين والدافع الاول لذلك هو العناد الذي سيأتي توضيحه والذي تشهد له هذه القصة التي ترويها صفية بنت حي بن اخطب « ام المؤمنين » حيث قالت لما قدم رسول الله المدينة ونزل قباء ، غدا عليه ابي حي بن اخطب ، وعمي ابو ياسر بن اخطب مفلسين ، فلم يرحبا ، حتى كان غروب الشمس فأتيا كالين كسلانين متساقطين يمشيان الهوينى ، فهششت إليهما ، فما التفت إلي أحد منهما مع ما بهما من الهم ، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ! أي المبشر به في التوراة قال نعم والله . قال اتثبته ! يعني هل أنت متأكد من ذلك ! قال نعم . قال فما في نفسك منه ؟ قال عداوته والله ما بقيت أبداً ، فيا ترى ما الذي حملهم على عداوته ؟.

(١) كانوا يعتقدون أنهم خارجون عن نطاق الدعوة ، وسيكونون معه في المدينة جماعة لهم استقلالهم وعقيدتهم فإذا به يواجههم بها، ويدعوهم الى الاندماج في الامة الإسلامية ومساواتهم بالعرب ، وهو شعب الله المختار الذي له السيادة والسلطان على غيرهم من الاميين فكيف يقبلون ذلك .

(٢) إن النبي عليه السلام سد عليهم الامل في مجيء رسول منهم يحقق لهم أغراضهم وذلك انه قرر انه خاتم المرسلين ولا نبي بعده ، وكيف يقبلون أن يكون فخر الرسالات لسلالة اسماعيل مع تواتر الأنبياء من سلالة اسحاق جدهم وقد سجل القرآن عليهم هذا الحسد فقال : « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » (البقرة ٩٠) .

(٣) إنه انصرف عن قبلتهم ، بعد أن كان مستقبلاً لها ، فأفصح عن مخالفتهم ، وقطع عليهم الامل في ميله نحوهم . قال تعالى : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » (البقرة

١٤٥) وقد صرح بذلك سلام بن يشكم ، وشاس بن قيس وغيرهم حين قالوا للنبي كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ؟ (ابن هشام ج ٢ ص ٤٤) .

٤ – انه عمل على تأليف الاوس والخزرج وتقوية وحدتهم بالإيمان وهم أعداؤهم ومنافسوهم من قديم ، ومعنى هذا تقوية صفهم ضد اليهود وهذا ما لم يكونوا ينتظرون .

(٥) ان دعوته صرفت الناس عنهم ، وزعزعت مركزهم ، وأسقطتهم من عروشهم ؛ وهم الزين يعملون طول أيامهم الاولى على الاستئثار بالسلطان ، وكم تعاركوا في سبيل ذلك مع الاوس والخزرج .

(٦) إن دعوته لم توافق أغراضهم في كثير من الامور ولم يستجب هو لرغباتهم ، حين يتحاكمون إليه ، وهم الذين كانوا يحاولون أن يحملوا الانبياء السابقين على تنفيذ رغباتهم ، وإلا كذبوهم أو قتلوهم كما مر بيانه ، لقد أرادوا مرة أن .. يتخلصوا من الحكم بالرجم على رجل زنى منهم كما تقضي بذلك شريعتهم ، فأشار أحبارهم عليهم أن يتحاكموا الى محمد ، وقالوا لهم إن حكم بالرجم فارفضوا وان كان بغيره فاقبلوا .

فرفض النبي أن يحكم بغير الرجم ، وجاء على ما في كتابهم الذي كان يقرأه أحد أحبارهم وقد غطى بيده آية الرجم ، فضرب عبدالله بن سلام يده وأظهرها للنبي . وفي ذلك يقول الله تعالى في معرض الحديث عنهم ، « يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه ، وان لم تؤتوه فاحذروا » (المائدة ٤١) . ويقول « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك ، وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك ، وما اولئك بالمؤمنين » . (المائدة ٤٢، ٤٣) .

إزاء هذه العوامل ناصبوا رسول الله العـداء في دعوته وفي شخصه ، وفي جماعة المسلمين وكانوا في عدائهم فجرة لا يتورعون عن أي طريق يصلون به الى النيل من محمد وقد قرر الله ذلك في قوله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، (المائدة ٨٢) فهم والمشركون ينزعون عن قوس واحدة وقد بلغ من شدة عنادهم أن فضلوا الشرك وعبادة الاوثان على التوحيد ، ذلك لان التوحيد يدعو إليه محمد .

حدث ان وفداً من اليهود فيهم حيى بن اخطب ، وأبو رافع سلام بن أبي الحقيق والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق وابو عمار وهم من بني النضير ، ودحوح بن عامر ، وهوزة بن قيس من بني وائـــل ، ذهب إلى مكة لتأليب قريش على النبي (في غزوة الأحزاب) فسألتهم قريش – من هو الأفضل ديناً وأهدى سبيلاً ، هل هم قريش ام محمد والمسلمون ، فشهدوا لهم بأنهم على وثنيتهم أفضل من محمد على توحيده ، وقصدوا بهـــذا استمالتهم لحربه حتى لو كان بالاعتراف بالكفر وتفضيل الشرك على التوحيد ، وفيهـم نزل قوله تعالى « ألم تر الى الذين اوتو نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاعوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلاً اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجـد له نصيراً » النساء (٥١ ، ٥٢). وقد علق على هذا الحادث المؤرخ اليهودي « اسرائيل ويلفنسون » فقال كان من واجب هؤلاء الا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، والا يصرحوا أمام زعماء قريش ان عبادة الاصنام افضل من التوحيد الاسلامي. وهو اقرب الى عقيدتهم ولو أدى بهم الأمر الى ان يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فهم بالتجائهم الى عبادة الأصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم .

عداء اليهود للدعوة

تحت هذا العنوان سأورد بعض المظاهر التي تتصل بالدعوة ذاتها وتطعن في المبدأ بصرف النظر عن الداعي اليه والمستحبين له وان كان الطعن في واحد منها طعن في الجميع .

(١) أنكر اليهود ان تكون هناك رسالة من غير بني إسرائيل فهم وحدهم الجديرون باختيار الرسل منهم ، ومحمد من العرب الاميين « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته » فلذلك لا يعترفون برسالته وقد قال حي ابن أخطب وكعب بن أسد وابو رافع وغيرهم لعبد الله بن سلام حين أسلم : ما تكون النبوة في العرب ولكن صاحبك ملك (ابن هشام حـ ٢ ص ٤٤) وقد انزل الله في ذلك « بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغياً ان ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده » (البقرة ٩٠).

(٢) إنكروا ان هناك بشارة في كتبهم أو عهداً بالايمان به وقد قال مالك بن الصيف للنبي عليه السلام حين ذكر لهم ما اخذ عليهم من الميثاق ، والله ما عهد الينا في محمد عهد وما اخذ له علينا من ميثاق . فأنزل الله فيه .. « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم » (البقرة ١٠٠) « بن هشام جـ ٢ ص ٣٦ » وعمدوا الى تغيير صفاته الموجودة في التوراة واستبدلوا بها صفات أخرى لا تنطبق عليه ليضلوا الناس ، ويتخلصوا من عهد الايمان قال تعالى « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » (البقرة ٤٢) وقال « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون » (البقرة ٧٩) وقال « الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون

الحق وهم يعلمون » (البقرة ص ١٤١) .

(٣) رفضوا قبول رسالته لأنهم أهل علم ومعرفة لا حاجة لهم بعلم جديد فقلوبهم مملوءة ليس فيها متسع وهي مغلقة لا تسيغ علوماً غير ما عهدت من علم آبائهم الأولين الذين كانوا خيراً منهم وأعلم ، كما قـال ذلك رافع بن خارجة ومالك بن عوف فأنزل الله تعالى « وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بـل نتبع مـا الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلقـون شيئاً ولا يهتدون » البقرة ١٧٠) .

(٤) رفضوا دعوته لأنها مخالفة لدعوة إبراهيم الذي زعموا انه كان يهودياً ولو كانت موافقة لها لآمن محمد باليهودية ودخل معهم ولا حاجة لدعوة جديدة. قد قال ذلك النعمان بن عمرو والحارث بن زيد حين دخل على اليهود بيت المدراس ودعاهم الى الإسلام فقال لهما الرسول هلم الى التوراة فهي بيننا وبينكم فأبيـا عليه ، فنزل قوله تعالى « الم تر إلى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » (آل عمران٢٣).

وحينما اجتمع اليهود ونصارى نجران عنـد النبي وتنازعوا وكفى كل منهما الآخر كما قال تعالى « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب »(البقرة ١١٣) ادعى كل من الفريقين ان ابراهيم على ملته فرد الله عليهم بقوله « يا اهـل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » (آل عمران ٦٥) ثم قال « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (آل عمران ٦٧) ثم بين أنهم ابعد الناس عن الانتساب اليه لانهم خالفوا ملته ، وان اولاهم به هم الذين جددوا دعوته وساروا على منهجه في التوحيد الخالص فقال « ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهـذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » (آل عمران ٦٨) .

(٥) بلغ من ضلالهم انهم كانوا يقولون : ان الله الحق هو الذي يعبده بنو اسرائيل فقط « يهوه » ولا يستحق غيرهم من الأميين ان يكون لهم هذا الإله خالقاً ومعبوداً ، ولما كان محمد يدعوهم الى اله واحد لجميع الناس خالقاً ومعبوداً كان ذلك تسوية لإله غيرهم بآلهتهم ، وهو اشراك ضمناً – وكان فيه أيضاً تسوية لغيرهم من الناس بهم ، وبينهم وبين الناس مدى بعيد فيرد الله عليهم بقوله : « قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون » (البقرة ١٣٩) وفي موضع آخر يقول « الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » .

(٦) تمادى بعضهم في العناد فطلب رافع بن حريملة ووهب بن زيد ان يأتيهم محمد بكتاب لكل منهم من السماء يأمرهم فيه بالإيمان به ، حتى يوقنوا انهم مقصودون كغيرهم بالدعوة ، يشير إلى ذلك قوله تعالى « يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا ارنا الله جهرة » (النساء ١٥٣) بل قالا له ايضاً ان كنت رسولاً من الله فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه ، وفي ذلك نزل قوله تعالى « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » (البقرة ١١٨) بن هشام جـ ٢ ص ٣١ .

(٧) جاءوا بتعلة يرفضون بها القرآن المنزل . وهي ان الذي حمله إلى محمد هو جبريل ، وجبريل عدو لهم – كما يزعمون – لانه ينزل عليهم بما يشق من التكاليف فيرد الله عليهم « قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » (البقرة ٩٧ ، ٩٨) .

(٨) شككوا الناس بطريقة عملية في صدق النبي وكتابه حيث كانوا يظهرون للناس انهم آمنوا ثم بعد ذلك يعلنون عدولهم عن الإيمان ويجهرون

بالكفر فاذا رأى الناس ذلك قالوا لولا ان ظهر لهم كذب محمد لما عدلوا عن الإيمان به وهم أهل علم ودراية . وهذا ما حكاه القرآن بقوله تعالى « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » (آل عمران ٧٢) .

(٩) جادلوا كثيراً رسول الله والمؤمنين بالباطل وجاءوا بأقيسة فاسدة ، ودعاوي باطلة كقولهم « نحن ابناء الله احباؤه » وقد كذبهم الله بقوله «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » (المائدة ١٨) .

(١٠) حاولوا تغيير ألفاظ القرآن الكريم واستبدالها بغير ما نزل تضليلاً للناس وفتنة . قال تعالى « وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران ٧٨) .

١١ — وكما حرفوا وبدلوا ألفاظ القرآن الكريم بدلوا معانيه وحملوها بتفسيراتهم على غير المقصود بل عارضوا هداية القرآن بأضاليل من عندهم فتنوا بها عقول الناس ليصرفوهم عن القرآن . روى البخاري عن أبي هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرأون التورات بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

(١٢) استغلوا فرصة تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة لتشكيك الناس في دينهم مروجين لذلك بقولهم ان كان اتجاه محمد الى بيت المقدس صواباً

فلماذا ترك الصواب الى غيره وهو الكعبة وان اتجاهه الى بيت المقدس خطأ كان ذلك دليلاً على جهله وتضليله لأتباعه كما أن ذلك ضيع عليهم صلاتهم التي صلوها إليه ، وقد أفهمهم الله الرد بعد ما هيأ نفس النبي الى ما سيصدر عنهم بخصوص التحويل فقال سبحانه « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع ايمانكم » . أي صلاتكم لبيت المقدس (البقرة ١٤٢ ، ١٤٣) .

هذه هي بعض الأساليب التي اتخذها اليهود لغزو الفكرة الدينية بالطعن في محمد ورسالته ، وفي القرآن الذي نزل عليه والأحكام التي قررها الله فيه . وهذه الأساليب يمكن أن تنكشف وتتحطم إذا كانت هناك قلعة حصينة من العقيدة القوية ، وقيادة حكيمة واعية ، وحراسة متيقظة تفوت على العدو غرضه ، وتحمي المجتمع شره ، وهو ما فعله النبي وصحابته إزاء أساليب اليهود ، وكان الوحي يؤيدهم لأنهم أخلصوا النية ، وصدقوا العزم ، فكان الله معهم بالعون والتوفيق ..

ولقد تنفس ذلك عن عداء لشخص النبي وللجماعة المسلمين . كان أهم مظاهره :

(١) تناولوا بالسب والقدح والاستهزاء شخص النبي عليه السلام والله يقول في ذلك «ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » (آل عمران ١٨٦) . وقد مر أنهم كانوا ينادون النبي بقولهم راعنا

(٢)

وهو مأخوذ من الرعونة ، ويقولون له اسمع غـــير مسمع وكان بعضهم يحييه بقوله السام عليك والسام هو الموت .

(٢) هددوا النبي والمؤمنين بقتالهم وبخاصة بعـــد غزوة بدر ، والتاريخ يحكي أنهم قالوا له يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، انك والله لو قاتلتنا لعرفت انـّا نحن الناس ، وانك لم تلق مثلنـــا ، فأنزل الله فيهم « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » (آل عمران١٢) والى جانب التهديد القولي شرع بعضهم في تجريد حملة لقتال النبي كما فعل أسير بن رزام .

(٣) عدم التعاون مع النبي وأصحابه في تنفيذ نصوص المعاهدة من حيث النصرة وتحمل الديات .

(٤) محاولة التخلص من محمد باغتياله والقضاء عليه بطريقة أخرى ، وممـا عرف من ذلك ثلاث طرق :

أ ـ عهدوا الى البيد بن الأعصم بإيذائه بالمرض عن طريق السحر الذي كان معروفاً عند العرب .

ب ـ حاولوا إلقاء حجر عليه من فوق جدار عندما ذهب الى بني النضير يطلب تعاونهم في دفع الدية لبعض القتلى .

ج ـ حاولت امرأة منهم أن تقضي على النبي بواسطة السم في حادث الشاة المعروف .

(٥) بدأوا نقض العهد بالفعـل عقب غزوة بدر على يد بني قينقاع الذين تعرضوا بالسوء لامرأة من الأنصار .

(٦) أذوا المسلمين اقتصادياً بتملكهم زمام الثروة بطريق القروض والربا والاحتكارات ومن مضايقاتهم ، ما حكاه القرآن الكريم بقوله « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » (آل عمران ٧٥) .

(٧) محاولة بث الفرقة بين المسلمين لإضعاف شوكتهم فأوعزوا الى شاس بن قيس بالتفريق بين الأوس والخزرج عن طريق تذكيرهم بالثارات القديمة . ونزل في ذلك قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين — الآية » (آل عمران ١٠٠). ومن مظاهر التفريق بناء مسجد الضرار لصرف المسلمين عن مسجد النبي عليه السلام.

(٨) تآمرهم مع المشركين ضد النبي وضد المسلمين كما حدث في غزوة أُحد بتحريض كعب بن الأشرف وغزوة الأحزاب بتحريض حي بن أخطب .

(٩) أنشأوا جبهة ثالثة في المدينة هي جبهة المنافقين ، والآيات التي نزلت فيهم كثيرة ومتعددة .

(١٠) تعاون اليهود مع كل حركة عدائية للدعوة وللمسلمين فساعدوا حركة طليحة بن خويلد الأسدي في ادعاء النبوة ، وحركة الأسود العنسي باليمن . وقد واجه الرسول عداءهم بالصبر أولاً والعفو والصفح حتى أذن الله بقتال المعتدين . وبدأ الرسول يصفي حسابه معهم ، وكان من أكبر مظاهر ذلك غزوة بني قينقاع التي أجلاهم فيها الى الشام ، وغزوة بني النضير التي أجلاهم فيها الى خيبر والشام ، وغزوة بني قريظة التي اقتص الرسول فيها منهم حيث قتل فيها الكثير ، وغزوة خيبر لتصفية آخر معاقلهم ، وكذلك غزوة وادي القرى وتيماء ، وفدك . ثم صفى الرسول أوكار النفاق بعد ما فضح الله أمر المنافقين في كثير من آيات القرآن الكريم .

وهكذا تم نصر الله لنبيه على اليهود واعوانهم وتهيأ الجو بعد ذلك للقضاء على اكبر معقل للشرك في الجزيرة ، وذلك بفتح مكة سنة ثمان من الهجرة . واستتب الأمن في الجزيرة وجاءت الوفود الى الرسول تسلم افواجاً ، وارسلت كتب الدعوة الى القبائل والى خارج حدود الجزيرة ، وتمت مهمة النبي عليه السلام في تبليغ الدعوة واستعد للقاء ربه .

« وإذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .

« الدكتور محمد محمد الفحام »

هل يمكن ان يخطىء الرسول؟

بقلم : **الدكتور عبد الحليم محمود**

وزير الاوقاف في جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد : فيقول الله سبحانه وتعالى :

« لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ».

ولقد بدأ رسول الله ﷺ رسالته بعد ان اعده الله سبحانه لتلقيها : ان الانبياء والرسل يعدهم الله سبحانه قبل ميلادهم ، انه يعدهم في اصلاب الآباء والاجداد العرق الطاهر والميراث النقي .. انهم خيار من خيار من خيار ..

يروي الإمام مسلم – بسنده – عن رسول الله ﷺ انه قال :

« ان الله اصطفى من ولد ابراهيم : اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل : بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة : قريشاً ، واصطفى من قريش : بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »..

لقد اصطفاه الله من بني هاشم ، واصطنعه لنفسه ورباه على عينه .. لقد رباه سبحانه من قبل الميلاد ، ومن بعد الميلاد ، ليحمل الرسالة الكبرى، الرسالة العامة الخاتمة ، رسالة الاسلام .

ورسالة الاسلام طابعها وشعارها وجوهرها انما هو اسلام الوجه لله ، هو السجود لله وحده ، هو : إياك نعبد وإياك نستعين ، انه : التوحيد أو هو : الإسلام ..

فكلمة الإسلام تتضمن هذه المعاني التي تتحدد وتتبلور رغم اختلاف الحروف والنطق ، لتلتقي كلها منصهرة في كلمة الاسلام ..

كان رسول الله ﷺ يعد من قبل الميلاد لحمل الرسالة : الاسلام، وكان يعد من بعد الميلاد لحمل الرسالة : الاسلام ..

ولقد سارت حياته بعد الميلاد على الطهر والنقاء وكان أول رمز جميل يعبر عن هذه الحياة ، حياة الصفاء والطهر : إنما هو رمز « شق الصدر » .

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الطفولة المبكرة . لقد كان صلوات الله وسلامه عليه — إذ ذاك — في بادية بني سعد ، عند مرضعته وبينما هو يلعب مع الغلمان — على ما يروي الإمام مسلم — أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه ، فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم اعاده الى مكانه » ...

وجاء الغلمان يسعون إلى امه — يعني مرضعته — ان محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

وهذا الحادث إنما يرمز إلى انه صلوات الله وسلامه عليه — طهره الله منذ الطفولة من حظ الشيطان ، وصدق بذلك قسم والدته حينما قالت لمرضعته : « والله ما للشيطان عليه من سبيل ».

وطهره واستقامته منذ نشأته ، جعلا العرب يلقبونه بـ « الأمين » ولم تكن كلمة الامين اسماً له ولكنها كانت إذا اطلقت لا تنصرف إلا عليه وكانوا يفرّحون بحكمه ، ويرضون بتحكيمه .

يقول الربيع بن خيثم :

« كان يتحاكم الى الرسول ، في الجاهلية قبل الاسلام ثم اختص في الاسلام».
ومن الأمثلة المشهورة في ذلك قضاؤه ﷺ في الخلاف الذي كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فانه حينما انتهوا من بناء الكعبة إلى حيث يوضع الحجر من البيت قالت كل قبيلة نحن أحق بوضعه » واختلفوا حتى خافوا القتال. ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بني شيبه فيكون هو الذي يقضي بينهم وقالوا رضينا وسلمنا بذلك — فكان رسول الله ﷺ اول من دخل من باب بني شيبه ، فلما رأوه قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما يقضي بينا ، ثم اخبروه الخبر فوضع رسول الله ﷺ رداءه ، وبسطه في الأرض، ثم وضع الحجر فيه ، ثم قال :

ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل ، فكان في ربع بني عبد مناف: عتبة بن ربيعة وكان في الربع الثاني: ابو زمعة وكان في الربع الثالث ابو حذيفة بن المغيرة وكان في الربع الرابع قيس بن عدي —ثم قال رسول الله ﷺ .

« ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً فرفعوه ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه ذلك ..

انه الأمين : وهذا وصف اجمع عليه القرشيون .

وهذه الحياة الطاهرة رافقها شعور مرهف بحب الله سبحانه والسجود له وتوحيده واسلام الوجه له .. وهذا الشعور حبب اليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — اي يتعبد — الليالي ذوات العدد ، قبل ان ينزع الى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ..

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة في الضلال، فيعتكف في غار حراء متعبداً حتى قالت العرب : « ان محمداً قد عشق ربه »..

واستمر الأمر على هـذا النسق — من الاعتكاف والعبودية — إلى ان كان الوحي وكانت كلماته الأولى إقرأ باسم ربك الذي خلق ..

واخذ رسول الله صلوات الله عليه وسلم منذ هذه اللحضة يتحقق بالقرآن في واقعه ، واصبح للقرآن صورتان :

صورة نظرية كلامية : هي هذه النصوص التي توحى ، وصورة واقعية حية تتمثل في رسول الله ﷺ تمثلا كاملا — حتى ليمكن ان يقال عنه ﷺ ، انـه كان قرآناً حياً يسير بين الناس ..

ولقد قالت السيدة عائشة — رضي الله عنها — تصف خلقه ﷺ « كان خلقه القرآن » .

وكلمة « الخلق » هنا إنما تعني حياته كلها لقد كانت حياته الآيات الكريمة تعبر عن ذلك بوضوح :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » ..

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » ... فلا وربك ، لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » ...

اما الوصف الذي يجمع كل ذلك في يقين جازم ويبين ان الرسول ﷺ ، قد خلص لله بجميع اقطاره ، واصبح ربانياً ، فهو قوله تعالى :

« قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » .

ان حياة الناس تخلص لله – على تفاوت في هذا الاخلاص – في بعض الأوقات أما حياة رسول الله ﷺ ، فقد خلصت كاملة – في ليله ونهاره ، في صمته ونطقه ، في حركته وسكونه ، لله سبحانه ، – ولم تكن حياته وحدها هي التي خلصت لله ، وإنما كان مماته ايضاً .

ولقد ميزت هذه الآية الكريمة بينه ﷺ وبين بقية البشر ، وصدق فيه قول الإمام البوصيري – طيب الله ثراه ، وجزاه خير ما يجزي محباً لرسوله .

ومنتهى القول فيه انه بشر

وانه خير خلق الله كلهم

والإمام البوصيري يتابع في ذلك قول الله تعالى :

« قل إنما انا بشر مثلكم يوحى إلي » واننا بمناسبة هذه الآية الكريمة لا نمل من أن نكرر ونقول : انه ﷺ « بشر » ... « وما يجول في خلد مسلم قط أن يخرجه عن البشرية ولكنه صلوات الله وسلامه عليه « بشر يوحى اليه » .

وما يتأتى قط أن يوحي الله الى بشر ، إلا إذا اصبح وكأنه قطعة من النور صفاء نفس وطهارة قلب وتزكية روح ...

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم ، فتمر عليه هذه الآية الكريمة « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » ...

يقف عند كلمة « بشر » فيحاول التركيز عليهــا ، وتوجيه الانتباه كله اليها، وتحويل الأنظار كلها نحوها فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ويندفع في هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً لا يتناسب قط مع قوله تعالى « يوحى إلي » بل انه في اندفاعاته الهوجاء ينسى « يوحى إلي » ويهملها إهمالاً ...

انه ليس بنادر في العصر الحاضر ان يجرؤ بعض الناس فيتحدث عن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه، وعن خطئه — معاذ الله — في الرأي وعن اصابته فيه ، ويسير هذا البعض في حديثه او في كتابته مستنتجاً ومستنبطـاً وحاكماً وينسى في كل ذلك :

« وما ينطق عن الهوى » .. وينسى في كل ذلك .

« يوحى إلي » .. وينسى :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » .. وينسى :

« لست كهيئتكم » ..

وينسى ان بعض المسائل يمكن ان تكون لها حلول مختلفة ، وبعضها رقيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وان الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الاسلامية ان رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — وهو على صواب دائماً — إنمـا يتخذ الحل الذي يتناسب مع ما حلاه الله به من الرأفة، وما فطره عليه سبحانه — من الرحمة وهو الحل الذي يتناسب مع طابـع الرسالة الاسلامية العام :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ... والله سبحانه ببيانه ذلـــك ، في هذه المواضع التي كان من الممكن ان يقف فيها الرسول صلوات الله وسلامـه عليه ، مع العدالة الحاسمة فعدل عن ذلك الى الرأفة الرحيمة — انما يمدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه صلوات الله وسلامه عليه .

ولم يلغ الله سبحانه اتجاهاً عاماً سار فيه الرسول ، ولم ينقض قضية كلية اقرها – صلوات الله وسلامه عليه – ولم ينف مبدأ اثبته رسوله فما كان صلوات الله وسلامه عليه ، يسير إلا على هدى من ربه ، وعلى بصيرة من امره ، وقد شهد الله له بذلك فقال :

« وانك لتهدي الى صراط مستقيم ، صراط الله ..

وما فعل الله ، في كل ما تمسك به المنحرفون وتمحك فيه المتمحكون إلا بيان رحمة الرسول ﷺ ورأفته .. أي انه سبحانه : كان يبين في هذه المواطن فضله صلوات الله وسلامه عليه وانه – كما وصفه سبحانه – : على خلق عظيم .

والبون شاسع بين هذه الوجهة الربانية ، والتحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها .

ولنضرب لذلك مثلاً :

ان الذين ديدنهم الجدل ، يتحدثون كثيراً عن قوله تعالى: « عفا الله عنك، لم أذنت لهم » .

ويقذفون مباشرة بقولهم ان العفو لا يكون الا عن خطأ . ولهؤلاء نقول ان الاساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير ..

ومنها قولهم مثلاً غفر الله لك : لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟ . عفا الله عنك : لم تعني نفسك في سبيل هؤلاء ، وكأن القائل يقول :

رضي الله عنك : لم ترهق نفسك كل هذا الارهاق . ان الآية القرآنية من هذا الوادي .. وضم هذه الآية الكريمة الى اختها التي في صورة النور :

« فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » ..

تجد المعنى واضحاً جلياً ، وهو ان الله سبحانه فوض الأمر لنبيه — صلوات الله وسلامه عليه — في أن يأذن لهم أو لا يأذن .

ليس النبي — اذن — معاتباً بهذه الآية — وحاشاه — بل كان ﷺ مخيراً ، فلما اذن لهم ، اعلمه الله انه لو لم يأذن لهم لقعدوا ولتخلفوا بسبب نفاقهم وانه مع ذلك لا حرج عليه في الاذن لهم . انها آية مدح للرسول غاية في الوقة ومن غير شك ، قد صدر الاذن لهم من قلب رحيم .. وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة ، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصدر في احكامه وما كان في ذلك الا متبعاً لقوله تعالى :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

وهكذا كان الأمر في كل ما يماري فيه الماررون .

ومع ذلك فاننا نزيد الأمر وضوحاً في الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يوحى إلي » لأهميته الكبرى، فنقص القصة التالية ذات المغزى العميق — والقصة نرويها ابن عطاء الله السكندري — رضي الله عنه — في شرحه لقصيدة ولي الله : ابو مدين — رضى الله عنه ، فيقول :

« زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد — رضي الله عنه — وقال : هل هنا احد ممن اجتمع بأبي يزيد فأشير الى شيخ كبير في السن كان حاضراً هناك ، فقال له :

هل سمعت شيئاً من كلام ابي يزيد .. فقال :

نعم سمعته قال : « من زارني لا تحرقه النار » ..

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول ابو يزيد ذلك ، وابو جهل رأى النبي ﷺ وتحرقه النار » .

فقال ذلك الشيخ لسلطان ابو جهل لم تحرقه النار ، لكنه رآه باحتقار ، رأى « يتيم أبي طالب » — ولو رآه ﷺ لم تحرقه النار .

فنهم السلطان كلامه واعجبه هذا الجواب منه — اي انه لم يره بالتعظيم والاكرام والأسوة ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار لكنه رآه باحتقار واعتقاد انه « يتيم ابي طالب » ، فلم تنفعه تلك الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن ابي يزيد رضي الله عنه ، وإنما نريد ان نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من ان ابا جهل لم يرَ النبي ﷺ ، وإنما رأى « يتيم ابو بو طالب » ..

هذه النظرة لأبي جهل ، هي التي نريد ان يتنزه المؤمنون عنها ..

والمؤمنون — بحمد الله — لا يقعون في هذا الإثم متعمدين وإنما يتسلل هذا الاثم إلى بعض النفوس في صورة لا شعورية عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وكأنه لا شيء فيه غير البشرية .

ومن الغريب : انهم حينما يتحدثون عن البشرية ويركزون عليها يعتبرون انفسهم تقدميين متطورين وفاتهم ان هذه النظرة لأبي جهل انما هي النظرة التي يتبناها المستشرقون والمبشرون في العصر الحاضر ليقللوا من شأن الرسول في نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة أو يتابع أبا جهل ، وهم في ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين وإنما هم من الرجعيين ، حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً مضت ، يتزعمهم فيها ابو الجهل كله وابو الظلمة القلبية كلها : ابو جهل .

ليس هناك — اذن — اجتهاد بخطأ وصواب وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة فيتحدث الله مبيناً طبيعة رسوله الكريمة وفطرته الرحيمة

ورأفته الواضحة ويبين في الوقت نفسه ان بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها وليسوا اهلا لها ، لفساد فطرهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة ، ان الانسان يميل إلى التركيز على « بشر » أو على « يوحى إلي » حسب قوه شعوره الديني وضعفه — فالذي لا إيمان لـه لا يرى إلا البشرية ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية . ويخف التركيز على البشرية كلما قوي الإيمان ويزداد التركيز على « يوحى إلي » كلما ازداد الإيمان ، حتى يصل الإنسان إلى ألا يرى ، أولا يكاد يرى إلا « يوحى إلي » ..

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله ..

وهناك — إذن — طرفان يمثلان فريقين من النـاس : طرف : « بشر » أو « قـل إنما انا بشر مثلكم ..

وطرف يوحى إلى اورسولا وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، وانخفاضاً وسمواً .. »

وان مقياس الإيمان قوة وضعفاً .. مقياس درجة الإيمان الذي لا يخطىء إنما هو ما وقر في القلب أو غلب عليه ، من البشرية أو من يوحى إلي ، انهما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان ..

دع ما ادعته النصارى في نبيهمو ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وإذا سألت الآن عن مقام رسول الله ﷺ بين الناس اجمع وبين انبياء الله ورسله فان ذلك يوضحه الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما ، قال رسول الله ﷺ :

« أنا سيد الناس يوم القيامه : هل تدرون مم ذاك ؟.. يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فينظرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم

الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول : ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟.. ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟.. فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم .. فيأتونه فيقولون :

يا آدم : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، واسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ الا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ، فيقول :

ان ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه نهاني عن الشجرة فعصيت : نفسي . نفسي . نفسي . اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح .. فيأتون نوحاً فيقولون :

يا نوح : انت اول الرسل إلى الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ الا ترى ما بلغنا ؟ الا تشفع لنا الى ربك ؟.. فيقول : ان ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ! نفسي .. نفسي .. نفسي .. اذهبوا إلى غيري .. اذهبوا الى ابراهيم .. فيأتون ابراهيم فيقولون :

يا إبراهيم ، انت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك .. الا ترى ما نحن فيه ؟.. فيقول لهم :

ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، واني كذبت ثلاث كذبات .. نفسي .. نفسي .. نفسي .. اذهبوا الى غيري .. اذهبوا الى موسى .. فيأتون موسى فيقولون :

يا موسى انت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك الا ترى ما نحن فيه ؟.. فيقول :

ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله، واني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسي .. نفسي .. نفسي .. اذهبوا الى غيري .. اذهبوا إلى عيسى ..

فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى انت رسول الله ، وكلمته القاها الى مريم ، وروح منه ، وكلمت الناس في المهد ، اشفع لنا الى ربك الا ترى ما نحن فيه ؟.. فيقول عيسى : ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً . . نفسي .. نفسي .. نفسي .. اذهبوا الى غيري .. اذهبوا الى محمد ﷺ .. وفي رواية : فيأتوني ، فيقولون ..

يا محمد ، إنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا الى ربك .. الا ترى ما نحن فيه ؟.. فانطلق ، فأتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله علي من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على احد قبلي ثم يقال :

يا محمد ارفع رأسك ، سل تعط ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأقول امتى يارب امتي يا رب ، امتي يا رب . فيقال :

يا محمد ادخل من امتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الابواب .

ثم قال : والذي نفسي بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

هذه هي مكانة الرسول ﷺ :

اما الذين لا تتجاوز أبصارهم وافكارهم يتيم ابي طالب فاننا نتوجه اليهم بالآيات الكريمة التالية :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم .. يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم .. إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون .. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم »..

ويقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر ، فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم .. أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ، فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم ، فأقيمو الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون .. »

ويقول :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم »..

(٣)



محمد .. والعدل الاجتماعي

بقــلم : **خالد محيي الدين**

ليس الهدف من هذه الدراسة تناول الجوانب الاجتماعية في الفكر الاسلامي ككل. ولا البحث عن منطلقات اسلامية وعقائدية لفكرة العدالة الاجتماعية، وإنما الهدف الأساسي منها هو القاء الضوء على زاوية محددة هي محمد الانسان .. والمناضل .. والقائد .. اسلوبه في الحيــاة ، منهجه في التفكير ، تصرفاته العملية .. وباختصار ان ننظر الى محمد « صلعم » في تصرفاته الانسانية مــع تلك الجماعة التي قادهــا من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ، سعيــاً لتحرير الانسانية كلها .

ان تعاليم الدين الاسلامي صريحة بغير ما لبس في تأكيدها لضرورة العدل الاجتماعي ، بل ان الدعوة الاسلامية كانت في ذاتها منطلقاً للعدل الاجتماعي بمن التف حولها من « المستضعفين » والعبيد والارقاء والفقراء ، وبمــن تصدى ضدها وقاومهــا من الأغنياء وكبار التجار وأصحاب الأموال المستغلة في الربا والقوافل ...

ولقد كان « محمد » (صلعم) راعي غنم فقيراً من سلالة الفرع الهاشمي والفقير الذي خاض صراعاً عاتياً ضد الفرع « الأموي » البالغ الثراء . بل لقد عمل محمد

أجيراً في القوافل ورأى كيف يكسب التجار، كيف يخسرون الميزان ويغشون الكيل ، لقد رأى بعينه وبتجربته كل شيء ، العملاء الذين يخرجون بالقوافل يغشون اثناء البيع ويسرقون من الربح الذي حصلوا عليه بالغش ...

وهكذا كل شيء يختلط ببعضه ، السادة يقهرون العبيد ، والاجراء لا يثقون في السادة الذين لا يعطونهم إلا اضأل الأجور ويسرقون جهدهم — الأمانة عملة لا تعرفها هذه السوق — والحق والعفة والرحمة بالناس كلمات تنتقل همساً بين الفقراء والصالحين ويطغى عليها زعيق السماسرة ورنين الذهب والفضة ...

لقد رأى محمد (صلعم) بعينيه وبتجربته آباء يلقون ببناتهم وزوجاتهم الى البغاء وفاء لدين ابتلعه الربا الفاحش ، رأى بعينيه وليس بتجربته العائلة تتحطم امام الفقر ووفاء للدين وبجانب ذلك الربا الفاحش والربح الكبير والغنى الذي لا حدود له .

لقد امتزجت تجربته الشخصية التي اكتسبها بتعاليم الاسلام التي اوحى له بها فجعلت منه ثائراً ، قائداً ذا قلب رحيم رقيق يتسع للخير ولحب الناس جميعاً .. لقد دعا الى ثورة كاملة تجتث كل الجذور الفاسدة لتغرس اساليب جديدة وعلاقات جديدة وقيماً أخرى :

الانسان سيد مصيره — ليس للانسان ان يستشفع بأحد، فالرجل وعمله ولا يصح ان يتنازل الانسان عن عمله لأحد يدبر عنه أمره، فلكل انسان قلب يفقه به وعقل يتدبر به ، يجب ان تصان نفس الانسان من الهوان وان يصان بدنه من الأذى .لا بد إذن من خلق مجتمع يسوده الاخاء، مجتمع تحكمه الأمانة ورعاية حق كل الناس على السواء ، — ثورة تقيم العدالة وتحرر الانسان من السيطرة والخوف والحاجة إلى لقمة العيش . تحرر القلوب والعقول وتضع أساساً للتعامل بين الرجل والمرأة .. بين الانسان والانسان ..

لقد رفع صوته عالياً بحماس الرجل الذي خاض تجربة الفقراء والاجراء أمام السادة الاغنياء وكبار التجار .

ولقد كان صراع أغنياء مكة ضد محمد (صلعم) وضد تعاليمه صراعاً طبقياً في جوهره ، وكانوا لا يكفون عن التهوين من شأن الدعوة الجديدة باعتبار ان كل من التف حولها وساندها من الفقراء ..

وكان على الرسول أن يذكر اتباعة دوماً بان الذين كفروا من قبلهم قد اتخذوا نفس الموقف ، وان الفقراء هم دوماً انصار كل رسالة حقة وعادلة ...

كموقف قوم نوح عندما رفضوا الايمان به لأن اتباعه فقراء .. « انؤمن لك واتّبعك الارذلون » (الآية ١١١ من سورة الشعراء. وهي آية مكية) .

(والارذلون هم الأقلون جاهاً ومالاً) تفسير البيضاوي ص ٥٢١ ــ طبعة القاهرة ١٩٢٦ م .

كذلك قول قوم نوح له أيضاً « ما نراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا » (الآية ٢٧ من هود .. وهي مكية) أي اخساؤنا لفقرهم) تفسير البيضاوي ص ٣٢١ .

وكان الوحي يؤكد دوماً لمحمد واتباعه ان النصر حقاً سيكون من نصيب الفقراء والمستضعفين « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » (الآية من سورة القصص وهي مكية) .

وهكذا فان الدعوة قد حددت منذ البداية لنفسها مساراً نضالياً محدداً ، فالتف حولها الفقراء .. وقاومها الاغنياء .

وكان محمد يقف دوماً معلماً اتباعه ورجاله قيماً جديدة واخلاقيات جديدة .

وفي ظل مجتمع كالمجتمع المكي في عصر الجاهلية كانت العصبية والقبلية والعنصرية في أوج عنفوانها فقاومها محمد « صلعم » « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » .

وحتى هو نفسه رفض ان يوضع في موضع اسمى من غيره من المسلمين، فعندما حاول بعض رجاله ان يطريه صاح فيه محمد قائلا « لا تطروني » فرد عليه قائلا : – « لماذا لا نطريك وانت سيدنا جميعاً » فزجره الرسول ونهره فان هو إلا بشر مثلهم .. لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا .

وعندما خرج محمد « صلعم » إلى غزوة بدر لم يستخلف على المدينة احد وجهائها ولا أحد اغنيائها وانما استخلف عليها رجلين من بسطائها احدهما يؤم الناس في الصلاة ، والآخر يقضي بينهم ، وأوصى الذي هو قاض بينهم ان يستفتي قلبه فيما يعرض له من قضاء لا نص فيه (عبد الرحمن الشرقاوي – محمد رسول الحرية ، كتاب الهلال ص ١٧٨) .

وإذا كان محمد يدعو اتباعه الى التعفف وإلى التقشف فقد كان يقدم لهم المثل والقدوة ولم يطالب قومه بشيء لا يقبله هو ولا يقدم عليه هو قبل غيره .

وقد حاول عبدالله بن أبي ان يدس على الرسول فراشاً وثيراً ثميناً حملته إلى عائشة امرأة من الانصار، ثم راح يروج وسط العاملين ان رسولكم ينفق أموال الغنائم على نفسه وعلى بيته وانه يتخذ لنفسه فراشاً كفراش كسرى . وسمع محمد « صلعم » بالخبر فعاد إلى بيته ليجد عائشة مسترخية على الفراش الجديد في فرحة غامرة فأمرها ان ترده إلى اصحابه ثم استلقى على الحصير الخشن كما تعود.

وكان محمد يدعو الى العدل ويحض الناس على التمسك به « يوم الوالي العادل افضل من عبادة سبعين عاماً »...

وفي آخر خطاب له في الناس .. وقف يعلم قومه النزوع إلى الحق والعدل، وانه ما من انسان — حتى رسول الله — يسمو او يعلو فوق الحق والعدل ..

« ايها الناس ، من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن اخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلي فانها ليست من شأني .. ».

وهكذا فان القيم والاخلاقيات التي غرسها محمد « صلعم » في رجاله والتي أوصاهم باتباعها — وأهم من هذا كله — والذي كان لهم فيها قدوة ومثلا .. هي كلها قيم تحض على المساواة والاخاء والتمسك بالعدل والحق .

لكن محمد « صلعم » لم يقدم فقط نموذجاً اخلاقياً وإنما قدم أيضاً نموذجاً من علاقات اجتماعية تقوم على أسس صريحة في نزوعها نحو العدل الاجتماعي .

وأدل مثال على ذلك ان النبي طلب جميع المهاجرين والانصار ان يعملوا في بناء مسجد المدينة .

ويحرج بعض الاغنياء من العمل بأيديهم ، فلم يشأ محمد أن ينهرهم وإنما قدم لهم المثل والقدوة وانهمك هو في البناء فاقبلوا على العمل خجلين ، ولكن متباطئين ..

وحاول عمار بن ياسر ان يحث عثمان ابن عفان وهو واحدمن كبارأغنياء وسادات مكة وهو فوق ذلك زوج رقية بنت الرسول .. ويثور عثمان « لقد سمعت ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية ... والله اني لأراني سأعرض هـذه العصا على أنفك » .

ويعنفه محمد تعنيفاً شديداً ، فبأي حق يتعالى عثمان على عمار بن ياسر ولا يملك عثمان إلا الاعتذار يقدمه لعمار ..

والعدل الاجتماعي ليس مجرد تعامل اخوي وعلى قدم المساواة بين غني وفقير ، ولكنه في الاساس تقاسم في الاموال ...

وخير مثال على ذلك هو دعوة الرسول الى « المؤاساة » بـــين المهاجرين وبعضهم البعض عندما وصلوا الى المدينة ، والكثيرون منهم فقراء معدمون ، والبعض هرب تاركاً ماله وثرواته خلف ظهره بمكة فآخى الرسول بينهم على اساسين : —

الحق .. والمؤاساة

والمؤاساة هي الاشتراك والمساواة في الاموال والارزاق (المؤاساة .. يقال القوم أسوة في هذا الامر أي حالهم فيه واحدة .. وكذلك المؤاساة).

والمؤاساة : المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق — لسان العرب — ج ١٨ ص ٣٧ .

ومن أمثلة المهاجرين الذين تمت بينهم هذه المؤاخـــاة (أبو بكر وعمر — عثمان وعبد الرحمن بن عوف — الزبير وعبدالله بن مسعود — عبيدة بن الحارث وبلال — مصعب بن عمير وسعد بن ابي وقاص) .

راجع كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير — لابن عبد البر — تحقيق الدكتور شوقي ضيف . ص ١٠٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ثم يطور الرسول فكرة « المؤاخاة » فيجعلها بعد خمسة أشهر فقط مــن الهجرة « مؤاخاة » بين المهاجرين والانصار . وبعد ان كانت مؤاخاة على الحق والمؤاساة اضيف اليها أمر ثالث وهو الميراث اي أن الشركة والمساواة في الرزق والمال تعدت حياة الذين تآخوا وامتدت الى مـــا بعد الممات بحيث صار يرث احدهما الآخر .. واستمر هـــذا النظام أربعة عشر شهراً أي حتى غزوة

بدر التي حدثت في الشهر التاسع عشر من الهجرة عندما نزل قوله تعالى « وأولي الأرحام بعضهم أولى ببعض» عند ذلك صار التوارث بين ذوي الأرحام والقرابة الذين تآخوا من المهاجرين والانصار .

وهناك نقطة هامة جداً وهي ان هذه الآية لم تلغ المؤاخاة على الحق والمواساة انما الغت فقط التوارث بين المتآخين .

وهذه أيضاً تشير إلى تجربة النبي ﷺ ونظرته للأمور النابعة من احساسه بمشاعر الفقراء والمعدمين ومدى اتساع هذه المشاعر حتى أقام ذلك النظام في التآخي بين المهاجرين والأنصار مدة أربعة عشر شهراً حتى نزل قوله تعالى « اولي الارحام بعضهم أولى ببعض » وذلك بهدف وضع الحدود للنظام في المجتمع – واستمر نظام المؤاخاة حتى كان نصره على بني النضير وما حصل عليه من غنائم كثيرة وكانت أول ثروة ضخمة يفيء الله بها على المسلمين ..

فتوجه محمد الى الانصار مثنياً على كرم ضيافتهم لاخوانهم المهاجرين ثم قال « ان اخوانكم المهاجرين ليس لهم مال فان شئتم قسمت أموال بني النضير وأموالكم بينكم جميعاً ، وان شئتم امسكتم اموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » فأجاب الأنصار محمداً عن طيب خاطر وسماحة نادرة « بل قسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت ».

وبعد غزوة بدر اختلف المسلمون في أمر توزيع الغنائم ، قال الذين حاربوا وغنموا انهم أصحاب الغنائم وهم أحق بها فلتوزع بينهم وحدهم ، وقال الذين كلفوا بحراسة خيمة محمد أنهم كانوا يستطيعون هم أيضاً القتال والغنم ، فلماذا يحرمون ، وأوشك القوم أن يقتتلوا فيما بينهم.. ويخرج محمد اليهم « انكم لأولى الناس بعضكم ببعض » ثم أمر ان توزع الغنائم بين الجميع على السواء .

وبعد انتصار محمد على بني المصطلق وزع محمد الغنائم على فقراء المهاجرين

حتى يستغنوا وحتى ينتشلهم من وهدة الفقر أو ليس هو القائل « كاد الفقر أن يكون كفراً ... » .

وكان هدفــه من ذلك ان يقلل الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، فتوزيع الغنائم على الجميع رغم انه يحمل معنى المساواة إلا أنه يحفظ للاغنياء غنائم ويبقي الفقراء على فقرهم ولهذا خص الفقراء بالغنائم هذه المرة معلماً اصحابه مبدأ جديداً في العلاقات الاجتماعية .

« ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

لكن الأمر لم يقتصر على توزيع الثروات وإنما امتد أيضاً — عند الحاجة — إلى توزيع الزاد والمؤن .. ففي احدى الغزوات نقص الزاد مع المقاتلين فأمر الرسول كل ما مع المقاتلين من طعام ، ووضع أمام الجميع ليأكل كل على قدر حاجته ثم قسم الباقي بينهم بالتساوي .

« حدثنا اياس ابن مسلمـة عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأصابنا جهـد حتى هممنا ان ننحر بعض ظهرنا (أي دوابنا) فأمر الله نبي الله ﷺ فجمعنا مزاودنا (أي ما نحمل فيه زادنا) فبسطنا له نطعا (أي بساط من الجلد) فاجتمع زاد القوم على النطع قال .. فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ، ثم حشونا جروبنـا .. » (ورد بصحيح مسلم . شرح النووي ج ١٢ ص ٣٣ طبعة القاهرة) .

ثم لنتأمل موقفاً آخر للرسول (صلعم) .. وهو موقفه من اجارة الأرض ، وكان الناس على عهده يؤجرون الأرض بالثلث أو الربع او غير ذلك من غلتها .. فرأى الرسول اجحاف ذلك بالزراع فنهى عنه طالبـاً من كل انسان ان يزرع أرضه بنفسه فان لم يستطع فليتركها لمن يزرعها .

روى رافع بن خديج « كنا نحاقل الأرض على عهود رسول الله ﷺ فنكريها بالثلث والربع والطعام المسمى ، فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتي فقال : نهانا رسول الله عن أمر كان لنا نافعاً ... نهانا ان نحاقل بالأرض فنكريها على الثلث والربع والطعـــام المسمى ، وأمر رب الأرض ان يزرعها او يزرعها ، وكره كراءها وما سوى ذلك » (مختصر صحيح مسلم ص ٧) .

وعن جابر بن عبدالله ان النبي ﷺ قال « من كانت له أرض فليزرعها او ليزرعها اخاه ، ولا يكرها ...» .

وهكذا فالاستغلال محرم ، ومالك الارض أما ان يزرعها بنفسه أو يـدع غيره يزرعها لنفسه وفي الحديث الأول دليل على أن الرسول قد نهى عن كراء الأرض رغم انـه كان نافعـاً لقلة من الناس وهم المالكون لها ، لانه كان ضاراً بالأغلبية وهم المستأجرون وهذا تأكيد لنظرة الرسول ﷺ الى مصلحة الأغلبية وجعلها في صدارة قراراته .

كذلـك فانه من المأثور عـن رسول الله انه قد حمى اخصب الأرض قرب المدينة (أي حرم تملكها ملكاً خاصاً وجعلها لعامة المسلمين) .

وقد روى البخاري عن ابن عباس «بلغنا أن النبي حمى النقيـع...» والنقيـع هو الأرض الكثيرة الماء وبه سمي الموضع الذي حماه النبي (أي جعـله ملكاً للعامة) وهو على عشرين فرسخاً من المدينة .. وهو أخصب واد هناك وفيه شجر غزير يغيب فيه الراكب .. (نهاية الايجـــاز في سيرة ساكن الحجاز — رفاعة الطهطاوي صفحة ٤٩٢ طبعة القاهرة سنة ١٢٩١ هـ) .

وقد روى احمد وابو داود عن الرسول انه قال « النـــاس شركاء في ثلاث : الماء والكلاء والنار ».

وهو بغير شك موقف حاسم يؤيد الملكية العامة لاهم مصادر الثروة في المجتمع في ذلك الحين .

ويروى عن الرسول حديث يؤكد فيه دعوته للاهتمام بمصالح المجموع وعامة الناس .. فعن ابن موسى رضي الله عنه انه سمع النبي ﷺ يقول « لن تؤمنوا حتى تراحموا » ... قالوا « يا رسول الله ، كلنا رحيم « قال » انه ليس برحمة احدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » . (رواه الطبراني) .

وكم ادان الرسول الغنى الفاحش باعتباره سبب الفقر الفاحش ولقد كان الرسول يعلق فقر الفقراء مسئولية في رقبة الأغنياء .

ويروي الامام علي عن رسول الله قوله «ان لله على اغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ، وما يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع اغنياؤهم الا وان الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً » .

ولكم نعى الرسول الكريم على الأغنياء كثرة غناهم وتجاهلهم لفقر اخوانهم .. وفي آخر أيام حياته مال الرسول الى الكعبة فجلس في ظلها ولاحظ مظاهر الغنى تبدو على البعض ومظاهر الفقر تكسو الكثيرين ...

فظل يردد في أسى «والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » واقترب منه ابو ذر الغفاري وهو يردد هذه الآية فمال عليه الرسول قائلا « هم الأخسرون ورب الكعبة » فسأله أبو ذر من هم يا رسول الله فقال « الاكثرون أموالاً ... » .

ولقد كان الرسول يؤكد دوماً ان المسلم الحق لا يحوز ما زاد عن حاجته ويأمر بأن يرد هذا الزائد عن الحاجة إلى « المحتاج » باعتبارة حقاً له .

وعن أبي سعيد الخدري انه قال « ... بينما نحن في سفر مع النبي (صلعم)

إذ جاء رجل على راحلة له .. قال : فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً ، فقال رسول الله ﷺ « من كان معــــه فضل ظهر (أي دابة) فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له ... » قــال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لأحد منا في فضل ... » (صحيح مسلم ، بشرح النووي جـ ١٢ ص ٣٣) .

ومعنى الحديث الشريف واضح لا لبس فيه فمن كان معه مال زائد فليعطه لمن لا مال له .

لكن العديد من اغنياء المسلمين استكثروا ان يضعوا دعوة الرسول بتقسيم المال الزائد موضع التطبيق، وحاولوا جاهدين ان يتناسوا هذه التعاليم الانسانية الرشيدة والا يجعلوها ترى النور ...

وثمة رواية توضح هذا الموقف من بعض اغنياء المسلمين وهي روايــة تحفزنا الى ان نتقصى تعاليم رسولنا الكريم مدركين ان بعض أغنياء المسلمين قد حاولوا نسيان تعاليمه المنادية بالمساواة بين البشر وتعاليمه التي تحض على العدل الاجتماعي والتي ترفض الاحتكار والاستغلال .

والرواية عن الإمام مسلم في صحيحه (جـ ١١ ص ٤٣) قال « .. حدثنا عبدالله ابن قعنب ، حديثاً سليماً ، » يعني ابن بلال « عن يحيى » وهــــو ابن سعيد قــال : كان سعيد بن المسيب يحدث ان معمرا قــال : قــال رسول الله ﷺ : من احتكر فهو خاطىء .. فقيل لسعيد : فانك تحتكر ؟ قال سعيد : ان معمرا الذي كان يحدث هذا الحديث كان يحتكر » .

وإذا كان العمل هو المصدر الرئيسي للقيمة وإذا كان العمل هــــو الأساس للتقدم وهو أساس كل الأنظمة التي تسعى للعدل والمساواة — فلدينا العديد من الأحاديث الشريفة التي تمجد العمل وتراه العامل الذي يعطي الشيء قيمته ..

فالرسول « صلعم » يقول « لان يحتطب احدكم ـ وفي رواية أخرى ـ لان يأخذ احدكم حبلاً فيحتطب ـ خير له من أن يسأل الناس اعطوه أو منعوه».

ويقول عن يد العامل : « هذه يد يحبها الله ورسوله » .

ويقول « لا يؤجر احد إلا بكد يمينه »... وهو هنا يحدد ان العمل هو المصدر الوحيد الذي يستحق به الانسان الأجر .

ويقول « أطيب الكسب عمل الرجل بيده » (رواه احمد والحاكم) .

* * *

وبعد ... فان الحديث عن محمد « صلعم » والعدل الاجتماعي يطول مداه وما من عجالة كهذه كافية لابراز التفاصيل وهي كثيرة أو لحصر الادلة وهي أكثر من ان تحصى وإنما نحن نكتفي بايراد بعض الأمثلة وهي بالغة الدلالة ، كافية بذاتها لتقدم لنا الصورة الحقيقية لمحمد كمناضل يدعو لتحرير الانسان. وليسمو بالانسان فوق المطامع والأحقاد . وليرفض للانسان ان يستباح جهده أو عرقه نهباً لمستغل ...

لقد وضع محمد « صلعم » الأساس المتين لفكرة العدل الاجتماعي مؤكداً ان استغلال الانسان لأخيه الانسان أمر لا تقبله الشريعة ولا تقره ...

مؤكداً ان الاسلام دين يأبى إلا أن يعطي لكل ذي حق حقه .. وحق الانسان ان يعيش حراً من كل قيد ، حقه ان يحفظ عرقه لنفسه والا يقدمه لقمة سائغة في فم مستغل ...

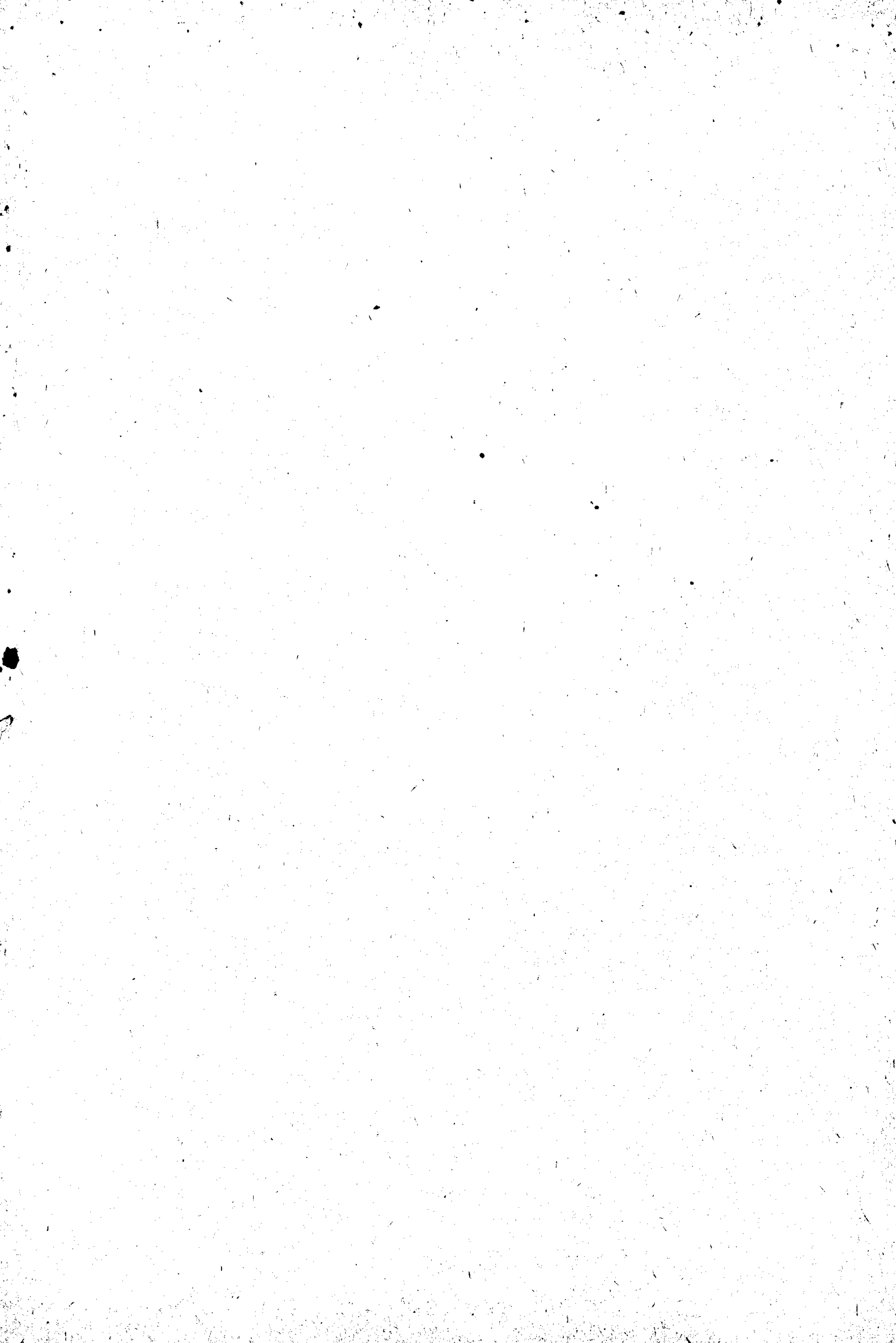
حقه في أن يرفض الظلم وان يقاومه وان يقيم العدل ويذود عنه ...

لقد ترك محمداً « صلعم » للمسلمين من القدوة والمثل اللذين قدمها في حياته

والتعاليم التي أوحى له بها ما إذا تمسك به المسلمون حقيقة صاروا ثوارا في طليعة المناضلين ضد الظلم والاستغلال في كل انحاء العالم . وانحازوا بشكل كامل الى صف المضطهدين والمستغلين مدافعين عن قضيتهم ...

فتعاليم محمد « صلعم » تقف إلى جانب المساواة بين البشر ، الى جانب الحق والعدل ، مع الثوار والمشاركة ورفض الاستبداد بالرأي أو بالحكم ضد تركيز الثروة والاحتكار وضد استغلال الانسان لأخيه الإنسان . ان المجتمع الذي بشر محمد « صلعم » هو مجتمع متكافل ، متضامن ، يسوده الاخاء ، يمجد العمل ويعتبره مصدراً لكل قيمة ، ويفرض على الحاكم ان يتدخل دفاعاً عن مصلحة العامة وحقوقهم .

ولعلنا بمثل هذا الفهم لرسالة محمد ﷺ ننصف أنفسنا ونقيها كثيراً من الحيرة وكثيراً من الشطط .



رد علمي هادىء على المستشرقين واعداء الاسلام الذين يقولون

محمد هو مؤلف القرآن

بقـلم : **الدكتور أحمد شبلي**

اطرق هذا البحث بقانون العـلم ، واسير فيه خطوة في ضوء الفكر ، اثير المشكلات وأبرزها ، ثم اناقشها بهـــدى العقل لتقودنا إلى الحق وإلى الطريق القويم . فالهدف من هذه الدراسة علمي وليس دينياً .

وعلى هذا فإني لست احاول بهذا البحث أن ادافع عن الإسلام وإنما أقوم بدراسة بعض القضايا متخذاً المنطق وسيلتي للبحث ليقودني بقوانينه إلى الغاية المثلى . والعجيب أن الذين وقفوا من محمد ومن القرآن موقف التحدي ، اطلقوا تحدياتهم كأنها قضايا مسلم بها لا تحتمل نقاشاً ولا فكراً ، ولم يقدموا عليها أي دليل ، وقد كبتت هـذه التحديات وماتت ردحاً من الزمن ، ثم نراها تهب من حين إلى حين متخذة نفس الاسلوب ، ولكننا لن نسلك هـذا الطريق في هذه الدراسة بل سنناقش هذه الأفكار ، ولا نقول هذه الأوهام ، حتى ينقلها البحث العلمي ان استطاع من دائرة الفكر إلى دائرة الوهم .

ويقتضينا البحث أن نتحدث أولاً عن صدق محمد تجـاه بعثته ورسالته ، فإذا ثبت صدقه في هذا المجال ، كان الحديث عن القرآن فرعاً لذلك نسير معه لنرى كيف يمكن أن يثبت انه كلام الله .

ورسالة محمـد قوبلت بالتكذيب من أول يوم وانطلقت قريش تصرخ فيما حكاه القرآن الكريم عن موقفهم :

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا ابعث الله بشراً رسولاً ، قـل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً » (سورة الاسراء الآيتان ٩٤ – ٩٥) « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » (سورة ص الآية الرابعة) .

وفي صلح الحديبية رفض سهيل بن عمرو ممثل قريش أن يكتب في عهـد الصلح « محمد رسول الله » وقال : لو كنا نعترف انك رسول الله ما خلفناك – وينطلق حتى الآن بعض المفكرين من المستشرقين يعـارضون رسالة محمد ولا يرون عناصر الصدق فيهـا ، ومن هؤلاء المستشرق كارادوفو الذي يقول في كتابه « ابن سينا » «ونزع محمد من الرب قوة الانسال... فجعل من الله موجوداً واحداً منفصلاً عن العالم انفصالاً مطلقاً » .

وهكذا يرى كارادوفو ان محمداً هو الذي يصور الله بالصورة التي يراها ، فإذا كان اليهود يرون ان عزيز ابن الله ، وإذا رأى النصارى ان المسيح ابن الله! وإذا اتجه بعض العرب كخزاعة وكنانة إلى ان الملائكة بنات الله ، فإن محمداً ينزع من الله قوة أن يكون أباً ويجعله منفصلاً عن العالم ، وهكذا يضع هـذا المستشرق محمداً لا كرسول من عند الله، بل كرجل يرسم الله على نحو ما يريد .

وفي ادعاءات قريش التي حكاها القرآن الكريم ، وفي ادعاء كارادوفو ليس هناك دليل ضد محمد ، انما هو وضع للأمر كأنه حقيقة لا تحتاج إلى دليل وإذا

جاز لنا ان نلتمس بعض العـذر لقريش باعتبار ان النظام القبلي والاقتصادي والحياة الدينية دفعت قريشاً لتكذيب محمد ، والوقوف في وجهه دون تفكير، فاننا لا نجـد عذراً نقدمه للفيلسوف كارادوفو ان يقف هذا الموقف في عصر النور ، وبعـد أن قدمت السنون على صدق محمد براهين تتحدى كل مكابر ، تعال بنا لنرى :

قال محمد انه « رسول الله وخـاتم النبيين » (سورة الأحزاب الآية ٤٠) ومرت بعد ذلك القرون تلو القرون ولم يأت رسول بعد محمد ، وقـد كانت الرسالات قبله يتلو بعضها بعضاً دون حدوث فترة زمنية طويلة، بل كان بعضها يعاصر بعضاً ، كما حـدث بالنسبة لابراهيم ولوط ، وبالنسبة لاسماعيل واسحق ويعقوب ، وبالنسبة لشعيب وموسى ، وبالنسبة لزكريا ويحيى ، ثم جاء محمـد وقال انه خاتم الانبياء والرسل وصدقه الواقع أربعة عشر قرناً وليس مثـل ذلك دليل .

ومس التحريف والنسيان كتب الأنبياء السابقين جميعاً، وجاء محمد ولم تكن المدنية قد ازدهرت ولا الكتابة قد انتشرت ولكن محمداً قال ان الله سيحفظ القرآن الكريم من كل ضياع أو تحريف « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » (سورة القيامة الآيتان ١٦ - ١٧) « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (سورة الحجر الآية التاسعة) .

وحفظ القرآن الكريم وحده من بين الكتب السماوية دون ضياع أو تحريف أو زيادة على الرغم من المحاولات التي بذلت لذلك .

ولنسر خطوة أخرى أكثر تفصيلاً حول هذا الافتراض الأبله وهو عـدم صدق محمد ، فقد قال محمد : اني رسول الله ، أرسلني بشيراً ونذيراً .

وقال محمد : ان رسالتي تشمل البشرية كلها .

وقال محمد : ان رسالتي تنظم شئون الدين وشئون الدنيا ، شئون الروح وشئون الجسم ، شئون الفرد وشئون الجماعة .

هل صدق محمد فيما قال ؟

وهل ملأ هذا الفراغ الكبير الذي قال ان دعوته ستشمله ؟

تعال أولاً نفترض عدم صدق محمد ، وندعي مع من أدعوا ان محمداً لم يكن صادقاً وان دعوته انما هي من خلقه هو وليست رسالة من الله ، ولكننا نسرع فنتساءل .

كيف يدعي رجل مثل هذه الدعوى الكاذبة وتعيش دعوته ؟

ونتساءل ثانياً :

لماذا كذب محمد هذه الكذبة العريضة ، ما هدفه وما آماله ؟

ونسير في بحث السؤال الأول فنذكر ان كثيرين ادعوا النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات ، ادعاها الأسود العنسي ، وادعاها طليحة ، وادعتها سجاح وادعاها في العصر الحديث أحمد القادياني ولكن كل من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة أثارت الضحك والسخرية ، وكان عمرها في عمر الزهور ، وكثيراً ما تراجع صاحبها نفسه وسخر من نفسه مع الساخرين لشيء واحد هو ان النبوة عبء ثقيل حمله يرهق النفس البشرية والنهوض به من أشق الصعوبات .

انزل بين جماعة وأدع انك طبيب ولست بطبيب ، كم يمضي من الوقت قبل أن ينكشف أمرك ويظهر تضليلك ؟

وانزل بين جماعة وادع انك معلم أو مهندس أو رجل قانون أو حتى زارع أو طباخ أو حلاق ولست كذلك ، لا شك ان أمرك سينكشف بعد قليل

وسيطاردك أولئك الذين قد يخدعون بك في اللحظات الأولى .

هل النبوة أقل من ذلك ؟

اللهم لا . انهـا مسئولية خطيرة ، ودعوة عريضة ، وهي امتحان قاس ، هيهات أن يعبره كاذب أو مختلق إنها ليست كلمة تقال ، أو دعوى تدعى ، انها فكرة ، أو سلسلة من الأفكار ونظام أو حلقات من النظم ، وهي عقيدة تبنى ، وشروح تعرض ، ومشكلات تعالج ، ولا يقوم بذلك إلا أمين .

وتعال بنا إلى السؤال الثاني : ما هدف محمد من هذه الدعوى العريضة على فرض بطلانها ؟

من المحتمل أن يكذب انسان وان يدعي دعوى باطلة ، ولكن الذي لاشك فيه ان الانسان يرمي إلى شيء عندما يرتكب هذه الحماقة ، مـا الشيء الذي أراده محمد من هذه الدعوى ؟

هل أراد المال ؟ هل أراد الجاه ؟ هل حصل على شيء لنفسه أو لذويه ؟

الاجابة على ذلك واضحة يقصها علينا التاريخ الواضح الذي لا يختلف فيه اثنان ، فقد كان محمد غنياً قبـل البعثة بمال زوجته الواسع وثرائها العريض ، ولكن محمداً أفنى هذا المال وانفق كل هذا الثراء حتى ، إذا مات كان مديناً ، رهن درعه عند يهودي في قوت أهله ، وقد أراده قومه على المـال ، وعرضوا عليه أنفس ما يملكون ، لأنهم ظنوا انه طالب مال ، وعرضوا عليه الجـاه والسؤدد وأرادوه ملكاً عليهم ، ولكن محمـداً صاح صيحته الشهيرة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الأمر مـا تركته حتى يظهره الله أو اهلك دونه » .

وظنه الجدد من اتبـاعه ذا سلطان فوقفها له إذ قدم عليهم ولكنه هتف

بهم « لا تقوموا كما تقــوم الأعاجم ، فلست بملك ، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » .

وقاسى محمد من أجل النبوة ألواناً من العناء، عرف الجوع والطوى وامتدت عليه الايدي بالضرب والايذاء ، وقاطعته قريش هو ومن تبعـــه أو نصره ، واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، وشملت التجارة والمحادثة والتزاوج وغيرها من المعاملات وكان من نتيجتها ، الضر البالغ لمحمد ، ولبني هاشم جميعاً ، ثم تلا ذلك هجرة وغربة قاسية .

وماذا حصل محمد لذويه ؟

ان كان محمد قد حصل شيئاً لأولاده وذويه فذلك الشيء هــو الحرمان ، طالما بات مع أهله على الطوى ، وطالما قنع واقنعوا معه بالثوب المرقع، والنعال المخصوف ، ثم — وهو غاية الحرمان — لقد وضع محمد حداً لما قــد يقال عن جلب النفع ، فقال قبل موته نحن معاشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة . وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس من موتاهم ، ويبرهن على انــه رجل ليس لأهله وانما هو للمسلمين ، حياته لهم وموته لهم وكفاحه من أجلهم ، دون هدف ذاتي أو منفعة خاصة .

وليس لمحمد ميراث أدبي كما انه لم يكن له ميراث مادي ، فالنبوة ليست ملكاً ولا سلطاناً يتوارثه الأهل ، ولما مات محمــد انتقل سلطانه إلى القبائل كما يقضي الإسلام ، ولم ينله غير الأكفاء من أهل محمد كبعض العباسيين والعلويين ، إلا في عهد اضمحلال التفكير الإسلامي وتدهور الثقافات الإسلامية .

وفي حجة الوداع كان خطاب محمد حاسماً ، كان حساباً واضحاً قـــدمه لقومه ، قــال لهم : « أيها الناس من كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ومن كنت ضربت له ظهراً فهذا ظهري فليضربه ، أيهــا الناس كلكم لآدم

وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بالتقوى» .

حياة واضحة ونهاية واضحة ، حياة فيها الحرمان والضنى واللوعة له ولأهله ، فلما مات لم ينل منه ذووه شيئاً ، وكان للمسلمين جميعاً تراثه المادي والأدبي .

وهكذا عند حساب الأرباح والخسائر تجد محمداً لم ينل شيئاً لنفسه ولا لذويه ، وانما دفع من ماله وجهده وجاهه ، وما لمثل هذا يسعى كذاب مختلق.

وأكثر من هذا فالضر الذي نزل بمحمد لم يكن مفاجأة له ، ولم يكن يسعي للخير ، فأخطأه التوفيق ، ونزل به الضر ، لا ، فان محمداً كان يتوقع الشر منذ جاءته الرسالة ومنذ بدأ دعوته ، فقد روى انه عقب ان تلقى أمر ربه ناله الفزع والخوف، قدمته خديجة لينال شيئاً من الراحة فأجابها يا خديجة مضى عهد النوم والراحة وجاء عهد الكفاح والعناء .

وليس هذا فقط هو كل ما عندنا لاثبات صحة رسالة محمد فان محمداً أثبت لنا بما لا يحتمل تردداً انه يحمل رسالة نظمتها قوة اسمى بكثير من قوى البشر ، وفي التمهيد لاثبات ذلك انتقل بالقارىء إلى عصرنا الحديث وإلى حدث وقع في بلادنا خلال السنين التي نعيشها ، فقد ظهرت في الاسكان وتعثرت علاقة المالك بالمستأجر ، فنظمت الحكومة لجنة لتحديد الصلة بين المالك والمستأجر ، وطال عمل هذه اللجنة وامتد واشترك فيها رجال الاقتصاد والمهندسون ورجال القانون وغيرهم ، واجتمعت وانفضت عدة مرات ، وضم لها أعضاء جدد من حين إلى حين ، وبعد عدة سنوات أصدرت مشروعاً اصبح قانوناً بعد ذلك ، ولكن سرعان ما ظهرت ثغرات في هذا القانون ، وسرعان ما فكر القائمون بالأمر في وضع حلول لهذه الثغرات .

تعال نقارن ذلك بما فعله محمد ذلك الرجل الأمي الذي لم يعرف القراءة

ولا الكتابة . « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » (سورة العنكبوت الآية ٤٨) وهو قليل الثقافة وبيئته كذلك محدودة الثقافة ، ولكن رجلاً كهذا جاء بنظام للميراث عاش أربعة عشر قرناً ولا يزال في ميعة الصبا ، وعبر هـذا النظام حدود الجزيرة العربية إلى عدة اقطار واصطدم بمدنيـات وثقافات متعـددة ، وقورن بافكار البشر في رحلته الطويلة ، ولكنه رجحها ولا يزال يرجحها ، تعـال معي نقارنه بالنظام الانجليزي الذي يعطي الميراث للابن الأكبر ويدع من سواه من الأبناء والبنات ، وتعال نقـارنه بالنظام الهولندي الذي يعطي نصف الثروة للزوجة ، ثم يقسم الباقي بالتساوي بين الأولاد والبنات والزوجة مرة أخرى ، وتعال نقارنه بالنظم التي تعطي البنين وتحرم البنات كما كان متبعاً لدى كثير من قبـائل العرب ولدى السكان بشمالي افريقيا ، وتعال نقـارنه ببعض النظم التي تجعل الميراث لابنة الخالة الكبرى وتحرم من سواها كبعض الانحـاء باندونيسيا ، تعال نقارنه بالنظم القديمة والحديثة ، وستجده يرجح الجميع دون شك وباعتراف المفكرين المخلصين .

هذه واحدة وجاء هذا الرجل الأمي بنظام للزواج وبنظام للطلاق ونظام للرق ونظام للعبادات ونظام للسياسة ونظام للاقتصاد وتنظيم للحرب ، ولما بعد الحرب من مشكلات ، وتنظيم لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، وتحدث هذا الرجل عـن موضوع اهتزت فيه عقول البشر مدى التاريخ ، وهو الله ، وبيّن من هو الله في التفكير الإسلامي ، وتحدث هذا الرجل عما وراء الكون فجلى ما تعرض له من النقاط .

هل كل هذه الأشياء من صنع محمد أو انها تنظيمات وآراء تعجز عن القيـام بها لجان كثيرة لها ثقافات عالية وتخصصات متنوعة مهما اتيح لها من المراجع والدراسات والوقت ؟

ان ايماننا برسالة محمد ، إن كان قد بدأ بعامل الوراثة والبيئة فهو الآن ايمان

منطق، وعلم وفكر وايمان يشمله النور التي قدمتها السماء لسكان الأرضين ، والآن نتجه للحديث عن القرآن الكريم ، ولا شك اننا في حديثنا السابق المحنا بعناصر صدقه فما كان محمد من عنده يستطيع أن يأتي بما للقرآن من اعجاز وبما في القرآن من أفكار .

والقرآن الكريم – كمحمد – هوجم في الماضي ولا يزال يهاجم حتى اليوم وكان هجوم قريش على القرآن يتخذ طريقين: الطريق الاول انكار انه من عند الله وبالتالي ادعاء انه من صنع محمد .

الطريق الثاني اعتراف بجلال القرآن ولكن مع الانكار أن يكون محمد هو الذي تحظى بتلقيه من الله .

والطريق الاول تشير آية كريمة وفي نفس الوقت ترد هذا الاتهام بجزم واصرار قال تعالى « وكذب به قومك ، وهو الحق . قل لست عليكم بوكيل » (سورة الانعام الآية ٦٦) فالآية تشير إلى انكار قريش للقرآن وترد هذا الانكار بالجملة القوية « وهو الحق » وتتوعد المنكرين بأن الله سيجازيهم على هذا التكذيب لأن محمداً ليس موكلا بأمرهم ولا يستطيع منعهم من التكذيب ويجازيهم عليه . وهناك آية اخرى تدفع هذا الاتهام وترده متخذة العقل وسيلتها وهي قوله تعالى «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (سورة النساء الآية ٨٢) ويذكر المفسرون في شرح هذه الآية ان القرآن الكريم لو كان من عند غير الله لتناقض المعنى وتفاوتت النظم وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض ، وموافقة العقل لبعض احكامه دون بعض على ما دل عليه الاستقرار لنقصان القوة البشرية (الفخر الرازي والنسفي والبيضاوي) .

أما الطريق الثاني فيحمل اتجاهاً فيه اجلال للقرآن في ذاته ولكن فيه

اعتراض ان يكون محمد هو الذي يتلقاه من عند الله ، وهذا الاتجاه يحكيه القرآن الكريم بقوله :

« لولا نزل هـــذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (سورة الاعراف الآية ٣١) .

« انزل الذكر عليه من بيننا » (سورة ص الآية الثامنه) .

وليس يعنينا هذا الطريق هنا في شيء فالله سبحانه رد هذا الاتجاه بكثير من التبكيت والتأنيب ، قال تعالى :

« لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ أهم يقسمون رحمة بك؟» (سورة الاعراف الآية ٣١) .

« الله اعلم حيث يجعل رسالته » (سورة الانعام ١٢٤) .

« الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » (سورة الحج ٧٥) .

ومن اجل هـــذا نتجه في مناقشتنا للرأي الذي يرى ان القرآن من صنع محمد ، وهذا الرأي لا يزال له من بين المستشرقين انصار واتباع، ولعل احدث ما طلع علينا في هذا المجال هو كتاب ابن سينا الذي الفه كارادوفو وترجمه إلى العربية المرحوم الاستاذ عادل زعيتر وتنشره حكومة المملكة الاردنية الهاشمية في ذكرى وفاة المترجم، والمترجم عربي مسلم خدم المكتبة العربية والإسلامية بما نقل لها من كتابات المستشرقين ، وكان يختار مـــا كتب لينقله إلى العربية ، كما كان يرد بقوة في تعليقات واضحة ما يمس العرب ، او العقيـــدة الإسلامية بسوء ، ويبدو لي ان المرحوم الاستاذ زعيتر ترجم هذا الكتاب ولم يمهله العصر ليناقش قضاياه ويرد على ما انحرف منها .

والكتاب عن ابن سينا ، ولكن مؤلفه يرجع إلى الوراء ليتحدث عن الفلسفة التي ظهرت في المشرق بين الهجرة ووفاة ابن سينا كما قال في مقدمته (ص ٩) .

وفي هذا الكتاب شطحات وانحرافات يكثر ورودها في اقوال المستشرقين، وهي هنا تمس القرآن الكريم وتتحدث عنه على انه من صنع محمد ، ومن هذه الانحرافات نذكر هذه النماذج : —

– وهناك آية يعترف فيها محمد بالاصل التوراتي لبرهانه (ص ١٧) .

– والتاريخ العبري وحده لم يكن ليهز نفوس العرب هزاً كافياً ولهذا أضاف محمد وقائع اسطورية خاصة بتاريخ جزيرة العرب .. (ص ١٧ ، ١٨).

– وفي القرآن آيات على شيء من الغرابة قال محمد فيها .. (ص ٢٠) .

ومن الواضح أن الادعاء بأن القرآن من صنع محمد لا يحمل أي دليل ويستوى في ذلك ادعاءات قريش وما قاله ويقوله المستشرقون أما ردنا على هذه الادعاءات فبالدليل والبرهان القاطع .

لقد كان العرب يعنون بالاسلوب الرائع ويتعرفون عليه ولهم به خبرة كخبرة الصائغ في الذهب ، والزارع في الأرض ، والطبيب في الجراح ، ولم تكن لهم ثقافة ذات بال إلا في مجال البلاغة ، وكانت ثروتهم الفكرية محصورة في نطاق الشعر والنثر والفصاحة والبيان ، وكانت جموعهم تدع تجارتها جانباً في سوق عكاظ ومجنة وتلتف حول الشعراء ليسمعوا قصائدهم ويطربوا لها ، وقد دعاهم تقديس الفصيح من القول أن يعلقوا خير قصائد الجاهلية في الكعبة لتكون في مكان واحد مع معبوداتهم،ولتوضع في المكان الذي يحجون اليه ويتبركون به.

تلك كانت مكانة الفصاحة عند قريش وقد جاء القرآن في مجال الفصاحة بلون جديد على العرب ، وقد اختبره العرب وتعرفوا على غوره فوقفوا أمامه صاغرين ، وانطلق الوليد بن المغيرة وهو من هـو بين سادات قريش يقول عن القرآن الكريم وقد سمع منه آيات من سورة السجدة ، لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه .. وكان كثيرون من قريش يحسون باحساس الوليد ولكن قل فيهم من كان مثل الوليد شجاعة وجاهاً يستطيع أن يصرح بما في نفسه .

وهناك قصة ترويها كتب الأدب والتاريخ عن اجلال فصحاء العرب من غير المسلمين . للقرآن الكريم واعترافاتهم بما له من مكانة تفوق أرقى ما استطاع البشر أن يأتوا به ، وابطال هـــذه القصة هم أبو سفيان وأبو جهل والاخنس ابن شريف ،فهؤلاء لم يتبعوا محمداً وكانوا من اقسى اعدائه ولكنهم كانوا يتسللون فرادى إلى جدار بيت الأرقم ليتسمعوا من الكوى والنوافذ إلى محمد وهو يتلو القرآن ، وكان كل منهم يظن انه وحده الذي يفعل ذلك ولا يدري شيئاً عن صاحبيه ، وكان كل منهم يتخذ مجلسه في مكان مظلم بحيث لا تراه العيون وحدث مرة بعـد ان انتهى محمد من تلاوته للقرآن ان التقى الثلاثة بالقرب من دار الارقم وهم يتخذون طريقهم عائدين إلى بيوتهم . وسأل كل منهم صاحبيه من أين جئتما ، وفي غمرة الدهشة لم يحر احدهم جواباً ، وأتهم كل منهم الآخرين بالذهاب لسماع محمد ، واعترفوا بانهم في الذنب سواء ، ولكنهم اضافوا إلى ذلك اعترافهم بخطورة العمل الذي عملوه فاقبالهم على سماع القرآن قد يقودهم لاتباع محمد ، وهــذا ما لا يحبونه ، ولذلك اقسموا الا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى وعادوا إلى بيوتهم .

وفي الليـــلة التالية تحدث أحدهم إلى نفسه أن أحداً من هذين الرفيقين لن

يذهب الليلة لسماع القرآن ، فما علي ان حنثت في يميني وذهبت لاسمع هـذا الكلام العذب ، وذهب . ولكن كلا من الرفيقين الآخرين كان قد حدث نفسه بمثل ذلك وانتهى إلى نفس النتيجة ولما فرغ محمد من التلاوة أراد كل منهم أن يتأكد أنه وحده الذي جاء فأخذ يطوف حول دار الأرقم فتقابل الثلاثة ، ودار عتاب وشجار وأسف ممزوج بالضعف واقسموا مرة اخرى ولكنهم حنثوا أيضاً مرة أخرى ، واقترح أحدهم في هذه المرة أن يجتمعوا في المساء في بيت أحدهم ليرقب بعضهم بعضاً ، إذ ان الواحد منهم وحده لا يستطيع أن يتغلب على دوافع الرغبة في نفسه ، وبذلك استطاعوا أن يتوقفوا عن استمرار ذهابهم لسماع القرآن .

(ابن هشام ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢) .

وهناك قوم من العرب وقفوا من القرآن موقف التحدي وزعموا انهم يستطيعون الاتيان بمثله ، وقد تحدى الله سبحانه وتعالى هؤلاء الذين تحدوا القرآن فدعاهم إلى الاتيان بمثله ان استطاعوا وأكد لهم انهم لن يستطيعوا — ولو تعاونوا بحماس — أن يبلغوا هذه الغاية قال تعالى :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (سورة الاسراء الآية ٨٨) .

ثم تحداهم الله بأن يأتوا بعشر سور فقط ، قال تعالى :

« أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (سورة هود الآية ١٣) .

فلما عجزوا تحداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (سورة البقرة الآية ٢٣) .

ولا شك ان السخف الذي قالوه لم يكن يستحق أن يروى ولكننا نثبت منه نموذجاً واحداً مصداقاً لما قلناه .

سورة عن الضفدع

يا ضفدع ابنة ضفدع ، نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين (عبد المتعال الصعيدي – دراسات اسلامية) .

ومن الواضح ان محاولة هؤلاء المعاندين أن يأتوا بمثل القرآن تحمل في طياتها تقديرهم للقرآن الكريم واعجابهم به ، ولو كان القرآن لم ينل اجلالهم واعجابهم ، لما حاولوا تقليده ولما بذلوا الجهد لتحقيق ذلك .

وهناك اتجاه آخر للاستدلال على ان القرآن كلام الله ، اقرأ معي قوله تعالى « عبس وتولى ، ان جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك إلا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى . كلا ، إنها تذكرة » (سورة عبس الآيات ١ – ١١)

قصة جماعة يدعوهم الرسول إلى الإسلام ،ورجل اعمى مسلم يقتحم على الرسول جلسته ليسأل عن شيء غمض عليه ، ولكن الرسول يستمر في اهتمامه بهذه الجماعة رجاء أن يجذبها إلى حوزة الإسلام ، أما هذا السائل المسلم فيعرض عنه الرسول موقتاً ، فلن يفوت شيء إذا أجل الرسول الاجابة عن سؤاله ، ولكن القرآن لا يترك هذا التصرف لمحمد ، وتنزل عليه هذه الآيات التي يقرؤها الملايين . هل هي من صنع محمد ؟ وكيف جاز لمحمد ان يلوم نفسه هذا اللوم وان يجعل هذا التقريع قرآناً يحفظه الناس ويتلونه ، وفي هذه الآيات – بالاضافة إلى العتاب واللوم – معان سامية واتجاهات رفيعه لا يمكن أن

يعارض بهـا محمد نفسه ، لو كانت الدعوة من خلقه ، والقرآن من صنعته ، لأن الآيات تسأل بتهكم : لماذا تتصدى لتعـلم من استغنى عنك وعن الافكار التي تدعو لها ، ومـاذا يضيرك ان يبقى هؤلاء في ضلالهم .. كلا ، لا تفعل ذلك مرة أخرى .

وعلى هذا لا يمكن أن تكون سورة عبس من صنع محمد ، فلا يعقل قط أن يتصرف محمد هذا التصرف العادي ، ثم يعود فيلوم نفسه هـذا اللوم القاسي ويجعل لومه قرآناً يتلى .

وليست هذه السورة فقط هي التي اتخذت هـذا الاتجاة ، فهناك آيات أخرى لا تقـل عن سورة عبس ان لم تكن اشد منها واقسى ، اقرأ معي هذه الآيات :

— « عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين» (سورة التوبة الآية ٤٣) .

— « ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » .

(سورة التوبة الآية ٢١٣) .

— « مـا كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

(سورة الانفال الآية ٦٧) .

— « لولا كتاب من الله سبق ، لكم فيما أفضيتم فيه عذاب عظيم » (سورة الأنفال الآية ٦٨) .

— « وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه » .

(سورة الاحزاب الآية ٣٧) .

— « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن » . (سورة الاحزاب الآية ٥٢) .

— « لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة ازواجك » (سورة التحريم الآية الاولى) .

وهكذا تصرفات لم يقرها العزيز الحكيم فانزل فيها سبحانه آيات من قرآنه يلوم بها ويوجه ، ويقود فيها رسوله إلى المثل العليا ، ويعلمه بها ما لم يكن يعلم . انها دلائل واضحة على ان محمداً لم يكن مدعياً بل انه كان رسول الله ، وان القرآن الذي جاء به كلام الله ولدينا دليل آخر على ان القرآن الكريم كلام الله وانه ليس من كلام محمد ،ذلك ان محمداً كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه ، بحيث لو كان الأمر اليه لوجد لها مقالاً ومجالاً ، ولكن كانت تمضي الليالي والأيام ، تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس .

الم يرجف المرجفون بحادث الافك عن زوجه عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي ، وطال الأمد والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس « اني لا أعلم عنها الا خيراً » ثم بعد وقت طال وامتد — نزلت الآيات الكريمة : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » ...

(سورة النور الآية ١١ وما بعدها) .

فماذا كان يمنعه — لو كان امر القرآن اليه — ان يتقول هذه العبارات أو الآيات الحاسمة من أول الأمر ، ليحمي بها عرضه ، أو يذب بها عن عرينه وينفي عن أحب زوجاته اليه قول السوء .

(المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم — ص ١٠) .

وهناك حادثة مشابهة ينبغي علينا ايرادها، فالتاريخ يحكي ان اليهود اوعزوا لقريش أن يسألوا محمداً عن ثلاثة أمور ان عرفها كان نبياً وهذه الأمور هي : الروح واصحاب الكهف وذو القرنين ، وسألت قريش محمداً عنها ، ولم يكن محمد يعرف الاجابة ، وكان يطمع أن يوحي الله اليه بخبرها سريعاً ليكون ذلك معجزة له تهدي الضالين .

فقال لهم محمداً ائتوني غداً اخبركم . ولم يكن هذا التصرف من الرسول صلوات الله عليه مرضياً للعلي الأعلى ، لأنه حدد على الله موعداً ، ولذلك ابطأ عنه الوحي أكثر من عشرة أيام (بضعة عشر يوماً كما يقول المفسرون) وجاءت قريش في اليوم التالي والذي بعده ولم يجد محمد ما يجيبهم بــه واشتد جرحه وسخرت منه قريش وقال بعضهم ان الهه تخلى عنه ، ثم جاءه الوحي يحمل له ما أراد لكن مع النهي الا يعود لهذا الوضع وان يجعل مشيئة الله أساس كل وعد ، قال تعالى« ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت » (سورة الكهف الآيتان ٢٣ – ٢٤) .

ومن الواضح ان محمداً لو كان يصنع القرآن لدفع عن نفسه هــذا العناء وبر بوعده ، ولو كان يستقي الفكر من عنـــد غير الله لاتجه له دون هذا التأخير.

كلمة ختام :

والقرآن الكريم بذلك معجزة محمد الخالدة ، وهو اتجاه جديد في المعجزات لأنه يتحدى في يسر وهدوء ، فقد كانت المعجزات السابقة تشده وتفحم فـلا تتيح للانسان فرصة التفكير، ومن ذا الذي يستطيع أن ينجو من نارالقي فيها ؟ الذي يستطيع ان يحيي الموتى أو يبرىء الاكمه دون دواء، ولكن هذه العقول سرعان ما تعود إلى نفسها ، وتفكر فيما رأت ، فتعتقد أو يعتقد أكثرها أن ما شاهدت انمــا هو ضرب من السحر والكهانة فتكذب الرسول في دعواه ، وهذا المعنى هو الذي عبر عنه القرآن بالآية : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا

أن كذب بها الأولون » أما معجزات محمد فاتجاه آخر انها معجزات فيها تحد ولكن في يسر وهدوء فاذهب إلى بيتك واخل إلى نفسك أو اجتمع بصديق وخذ معك القرآن أو استعرض النظم التي جاء بها محمد في مختلف الشئون وناقش تلك المعجزات وتذكر ان التحدي لا يزال قائماً ، هل تستطيع ومعك اساطين البلاغة أن تأتوا بسورة من مثله ؟ هل تستطيع – ولا تخصص لك ، أو حتى مع التخصص – ان تضع امثال هذه النظم أو تخطيطاً خالداً لتنظيم في مسألة واحدة ؟ فكر وتدبر امرك بهدوء وتأنٍ ، فإذا عجزت كما عجز الملايين قبلك فالإسلام يمد لك يده ، ويفتح اليك بابه ، ويرحب بك لتدخل في زمرة اتباعه والله يهدي إلى سواء السبيل .

محمد .. وموقفه من الأنبياء والرسل السابقين

بقلم : طالب الحسيني الرفاعي

حين نتحدث عن موقف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الأنبياء السابقين ومن رسالاتهم ، يجب ان يكون واضحاً لدينا ان البشرية قبل بعث الأنبياء وارسال الرسل كانت تنظر حياتها بهدى الفطرة السوية ، ولما تلوثت هذه الفطرة بمر الزمن احتاج اصحابها إلى من يردهم اليها مع تزويدهم بشيء من المعارف ذات الصلة بتحسين شئونهم المعاشية غير مهملة ما يتعلق بأمر معادهم من وظائف دينية توثق صلتهم بالخالق وتقيم ما بينهم علاقات في غاية الصفاء والطهر .

وإلى هذا كله يشير القرآن الكريم المنزل وحيا على لسان سيدنا محمد ﷺ — في بعض آيات منه حيث يقول :

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » يونس — ١٩ .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » البقرة — ٢١٣ .

وقد صور هذا المعنى الإمام علي عليه السلام في خطبة له ذكر فيها ابتداء

خلق السماء والأرض وخلق آدم عليه السلام منها قوله : « واصطفى سبحانه من ولده أنبياء اخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة امانتهم ، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم ، فجهلوا حقه ، واتخذوا الانداد معه ، واجتالتهم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم انبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسى نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم آيات المقدرة ، من سقف مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وآجال تفنيهم وأوصاب تهرمهم ، واحداث تتابع عليهم ، ولم يخل الله سبحانه خلقه من نبي مرسل او كتاب منزل او حجة لازمة ، أو محجة قائمة ، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمي له من بعده ، او غابر عرفه من قبله ، على ذلك نسلت القرون ومضت الدهور وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء ، إلى ان بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لانجاز عدته ، واتمام نبوته مأخوذاً على النبيين ميثاقه ، مشهورة سماته ، كريما ميلاده . (شرح نهج البلاغة تحقيق – محمد أبو الفضل إبراهيم) .

والهداة الذين اصطفاهم الله من خلقه لخير البشرية واصلاح امورها فريقان: أنبياء ورسل وكلاهما يتلقى من الله اخبار السماء ، لكن النبي لا يؤمر بتبليغ ما يتلقاه ، والرسول يؤمر بتبليغه . فلفظ النبي إذن اشمل معنى من لفظ الرسول ، لكن الله تعالى يختص الرسول بشرف الإخبار عنه وإداء الأمانة التي يكل إداءها اليه ، ولهذا يقول الله تعالى إذ يعلن إنقطاع الوحي بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (الاحزاب – ٤٠) فينفي سبحانه ان يجيء بعد محمد نبي، لان نفي النبوة عن الناس من بعده يعني نفي الرسالة عنهم أيضاً ولا كذلك الحال لو ان الله تعالى نفى عنهم الرسالة ، لجواز ان يكون بعده نبي فيستمر الابلاغ عن الله بلا انقطاع، وإذا كانت هداية الرسل مستمدة من القدوة بهم، ومن ابلاغ رسالاتهم

إلى الناس فان هداية الانبياء بالقدوة أيضاً وبالتوجيهات الصالحة التي يستلهمونها من روح الوحي الذي يوحيه الله تعالى اليهم . يقول الإمام الباقر عليه السلام : « النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك ، والرسول يسمع الصوت ولا يرى في المنام ويعاين الملك » (تفسير الميزان ج ٢ ص ١٤٩ . طبع طهران) . نعم هناك بعض آيات تدل بالنظرة العابرة ان لا فرق بين الرسول والنبي ، كقوله تعالى « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » (الحج ـ ٥١) فقد جعلت الآية كلا من الرسول والنبي مرسلاً من عند الله تعالى ، ولكن هذا لا يقتضي انهما سواء ، فالرسول يبلغ ما يوحيه الله اليه نصاً وروحاً ، والناس ملزمون ان يتبعوه وينزلوا على مقتضيات رسالته امراً ونهياً ، وإلا عاقبهم الله على مخالفته والاعراض عن رسالته ، ولهذا يقول الله تعالى : « ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون » (يونس ـ ٤٧) ويقول: « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » (الاسراء ١٥) .

اما النبي فتتمثل رسالته في سيرته الطاهرة وشخصيته القوية المؤثرة وهديه المستمد من الآثار الطيبة التي يحدثها وحي الله عنده ، وتحمله في الحياة على التزام الجادة عقيدة وسلوكاً .

ومما يدل على ان الرسول غير النبي قوله تعالى « وما ارسلنا قبلك من رسول ولا نبي » (الحج ـ ٥١) وقوله تعالى : « لكن رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب ـ ٤٠) .

ولم يتعرض القرآن الكريم لاحصاء الأنبياء والرسل أو بيان عددهم يقول الله تعالى مخاطباً رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » (النساء ـ ١٦٤) .

لكن هناك روايات عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لا تعدو ان تكون من اخبار الآحاد ، اشهرها ما يسند الى ابي ذر الغفاري رضي الله

عنه : « ان الأنبياء مائة واربعة وعشرون الف نبي ، والمرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر نبياً » (الميزان – ج ٢ ص ١٤٩) .

وهناك رسل وصفهم الله تعالى بانهم أولو العزم، وذلك اذ يقول جل ذكره: « فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل » (الأحقاف – ٣٥) وهؤلاء هم سادات الأنبياء وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم جميعاً .

والعزم الذي يذكر الله تعالى انهم اصحابه والمختصون بـــه هو الثبات على العهد الذي اخذه الله عليهم إذ يقول سبحانه : « وإذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى واخذنا منهم ميثاقاً غليظاً »(الأحزاب–٧) وبين الامام الرضا عليه السلام سر وصفهم باولي العزم فيقول : « انما سمي أولو العزم لانهم كانوا اصحاب العزائم والشرائع وذلك ان كل نبي كان بعد نوح كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن إبراهيم الخليل وكل نبي كان في أيام إبراهيم كان على شريعة إبراهيم ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن موسى ، وكل نبي زمن موسى كان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعاً لكتابه إلى ايام عيسى. وبعده كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه الى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم . فهؤلاء الخمسة هم أولو العزم وهم أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام » تفسير الميزان ، ج ٢ ص ١٥٧ ، (طبع طهران) .

ويمكن أن يفرق بين شرائع الرسل الذين ارسلهم الله تعالى قبل رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم من وجهين :

احدهما ان شرائعهم لم تكن جامعة لاحكام الله في الدين والدنيا ولكنهـا كانت تتعلق بجوانب معينة من الهدى .

الوجه الآخر ان رسالاتهم لم تكن للناس كافة كشريعة القرآن إذ يقول الله تعالى لرسوله « وما ارسلناك إلا كافة للناس » (سبأ ٢٨) وقوله تعالى: «قل الله،

شهيد بيني وبينكم،وأوحى إلي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ». (الأنعام ١٩) فالرسالة المحمدية تجمع شرائع الرسالات التي سبقتها وتزيد عليها أحكاماً وقضايا تقتضيها مكانتها وشمول دعوتها وان الله يقول:« شرع لكم من الدين ما وصي به نوحاًوالذي اوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى» (الشورى-١٣).

وحكاية تعدد الرسالات وتتابعها على هذا النحو ان سنة الله في الكون تأخذ بالتدريج والتطور وتنكر الطفرة كما تنكر الجمود . فكانت الرسالات السابقة بمثابة تمهيد للرسالة المحمدية ، واعداد للبشرية ان تنتقل إلى طور جديد من أطوار الحياة الفاضلة ، تبلغ فيه رشدها وتأخذ طريقها إلى النضج الحضاري واكتمال الشخصية الانسانية باعتبارها خليفة عن الله في الأرض .

وكما كانت الرسالة المحمدية كاملة جامعة كان صاحبها صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً الى الناس كافة ، إذ كانت رسالته خاتمة الرسالات ، وكان هو صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين . وهو يدعو في رسالته الى الإيمان بالأنبياء السابقين وتصديق ما انزل عليهم من عند الله ، ويجعل هذا وذاك قسماً من الإيمان به وبرسالته ، ومما يدلل على ان وجوب الإيمان بما اوتيه النبيون جزء لا يتجزأ من شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل او اسحاق ويعقوب والأسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (البقرة — ١٣٦) .

وقوله تعالى : « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله » (البقرة — ٢٨٥) .

وقوله عز اسمه «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين » (البقرة — ١٧٧) .

وقد جاء في صريح القرآن ان الأنبياء والرسل كثيرون وانه سبحانه قال

في ذلك مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم : « ولقد ارسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»، والذين قصهم الله تعالى في كتابه بالاسم خمسة وعشرون نبيـاً وهم : « آدم ، ونوح ، وادريس وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط ، وإسماعيل، واليسع ، وذو الكفل ، والياس، ويونس، واسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وموسى، وهارون ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، واسماعيل صادق الوعد ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليهم اجمعين » نص على هـــذه الاسماء المفسر الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره المعاصر : (الميزان – ج ٢ ص ١٤٥ طبع طهران) .

وبالرجوع الى القرآن نجد بعض الآيات قد اشتملت على اسماء هؤلاء الانبياء عليهم السلام من ذلك قوله تعالى : « ان الله اصطفى آدم ونوحـاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين »(آل عمران–٣٣)وقوله : « واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً علياً » (مريم – ٥٦ ، ٥٧) .

وقوله : « واسماعيل وادريس وذا الكفل كل مـن الصابرين وادخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين » (الانبياء – ٨٥ ، ٨٦) ومنه قوله : « ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلـك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس ، كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين » (الانعام – ٨٤ الى ٨٦) ومن ذلك أيضاً قوله : « والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره» (هود – ٨٣) «والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون» (الاعراف–٦٥).

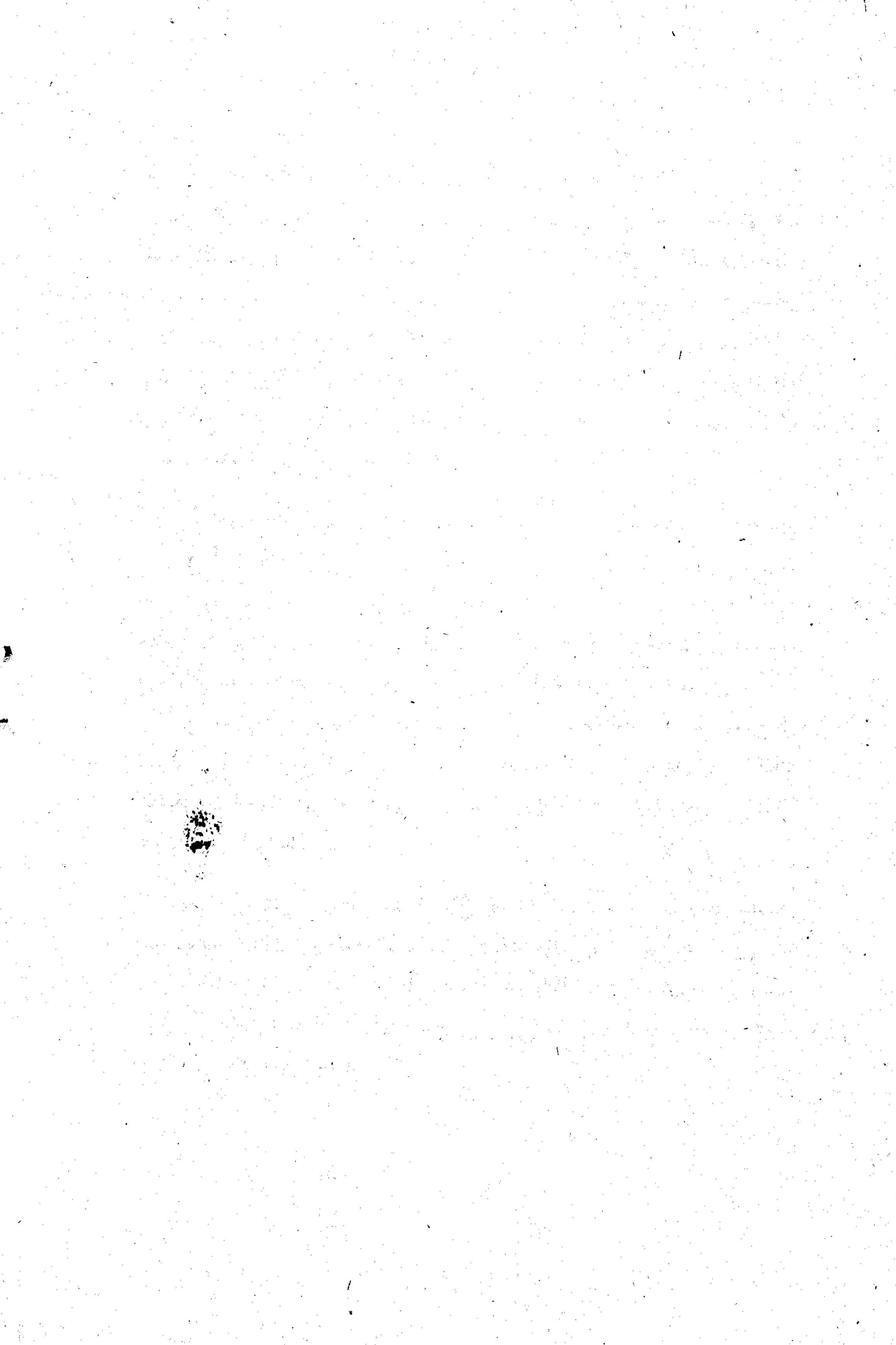
« والى ثمود اخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » (الاعراف – ٧٣) .

وهذه الآيات من الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم تقتصر

على ذكر اسماء هؤلاء الانبياء فقط بل ذكرت ماهم من الدرجات الرفيعة والمنازل الكريمة عند الله سبحانه وتعالى من اصطفائهم لرسالته وتفضيلهم على خلقه بتشريفهم بوحيه وهديه وكانوا من المحسنين والصالحين والمفضلين على العالمين. « والانبياء وان كانوا في أعلى مراتب الفضل لهم طبقات بعضهم أعلى من بعض وان كانت المرتبة الوسطى لا تلحق العليا ولا يلحق النبي من ليس بنبي ابداً » (تفسير التبيان للطوسي ج ٦ ص ٤٩٠ طبع) . النجف فالرسل عليهم السلام وكذلك الانبياء قد حصل بينهم التفاضل واليه اشار القرآن بقوله تعالى: « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ... الخ » .

والاختلاف بين الرسل اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات مع اتحادهم جميعاً في أصل الفضل وهو الرسالة. وهل يفيد هذا تفضيل اشخاص منهم بعينهم؟ نعم .. ورد في القرآن ما يشير إلى أفضلية أولي العزم من الرسل كقوله تعالى: «فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل» (الاحقاف–٣٥) وفي الحديث مر بنا قول الإمام الرضا عليه السلام : « فهؤلاء الخمسة هم أولو العزم وهم أفضل الانبياء والرسل عليهم السلام» (تفسير الميزان ج٢ ص١٥٠). فمقالة هذا الإمام تنص على أفضلية أولي العزم من الرسل دون غيرهم. وفي القرآن ما يدل على ان هناك تفاضلاً بين النبيين الذين هم أقل درجة من الرسل بقوله تعالى : « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » .

فقد نص تعالى في هذه الآية على تفضيل بعض الانبياء على بعض دون ان تستشعر منها تعيين المفضول او تبيين الفاضل – وهكذا جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « انا سيد ولد آدم وقال : لا تفضلوني على موسى وقال: لا ينبغي لاحد ان يقول انا خير من يونس بن متى » (تفسير البحر المحيط ج ٢ ص ٢٧٤ طبع مصر) .



الرسول وتعدد الزوجات

بقلم : الشيخ عبد الرحمن النجار

اختار الله تعالى لاتمام بناء الرسالات السماوية محمداً بن عبدالله ، فهو خاتم النبيين والمرسلين ، ورسالته هي المتممة لرسالة من سبقه من اخوانه الانبياء ، ويقول في ذلك : « إنما مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

وعا[illegible] رسول الله حياته كلها من السنة الاولى لمولده إلى السنة الأربعين وهو بشر سو[illegible] صبي مكتمل الصبا ، نظيف السلوك ، وشاب ذو قلب طاهر وعاطفة [illegible]ة ، ووجدان نقي ، ورجل اكتملت فيه كل معاني الرجولة الكاملة حتى لقب بين قومه بانه الصادق الأمين .

وفي تلك المرحلة من حياته ، وحينما وصل عمره إلى سن الخامسة والعشرين وهو سن الشباب الفتي ، والقوة البدنية والنفسية ، تزوج أول زواج له .. وممن تزوج ؟ تزوج سيدة تكبره بخمس عشرة سنة ؟ وليست بكراً ، انما كانت متزوجة قبله مرتين وهي خديجة بنت خويلد ، وبعث بالرسالة في سن الأربعين. ودخلت زوجه مرحلة الشيخوخة فاحترم هذا البيت الطاهر ، وعاش معها

حياة طويلة عريضة وانجبت له اولاده ، ولو شاء أن يتزوج فتاة تقاربه في عمره لكان له ما يريد ، فان التعدد كان أمراً عادياً آنذاك ، وتعدد الزوجات هـو حكم الله في الأديان كلها .. فلا أعلم ديناً من الاديان يمنعه ولهذا تقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى :

« ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، وجعلنا لهم ازواجاً وذرية » .

فالتعدد اذن ليس طارئاً على المجتمع العربي ، ولا على المجتمع بعد الإسلام بل ان الإسلام قد وجده ، ووجده مطلقاً بلا حدود ، فقيده بالنسبة للناس جميعاً بأربع زوجات ، واختص رسول الله بالزيادة عن هـذا العدد لأهداف انسانية واجتماعية ولمصلحة الدعوة نفسها في الاساس .

مكثت خديجة بنت خويلد مع رسول الله خمساً وعشرين سنة ، ولم يدخل عليها زوجة اخرى في حياتها .. وكانت بذلك جديرة بأن يكرمها الله تعالى كما ورد في حديث شريف ، ان جبريل قال « يا محمد اقرىء خديجة من ربها السلام فقال لها النبي ﷺ يا خديجة هذا جبريل يقرئك من ربك السلام » فتقول خديجة : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

ان محمداً ﷺ بشر فيه غرائز البشر وميولهم الفطرية ، فهو [illegible] يعيش سائر الناس ، يأكل ويشرب ويتزوج ويبيع ويشتري ، ولقد خير بين [illegible] يكون ملكاً نبياً او عبداً نبياً فاختار ان يكون عبداً نبياً ، ولهـذا يؤكد القرآن في آيات كثيرة بشريته « قل انما انا بشر مثلكم يوحي إلي ، انما الهكم اله واحد » .

ولما سأله الاعداء أموراً خارقة للعادة ذكرها القرآن الكريم في قوله :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الانهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت

علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » . لما طلبوا ذلك رد عليهم بقوله « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » ...

والبشرية تقتضي عدم اماتة الغرائز لهذا فليس بغريب ان يتزوج الانسان، ولكن الغريب ، ان يكون الدافـــع له هو الجنس وحده ، وذلك منفي عن رسول الله فقد بقي مع خديجة التي تكبره سناً طوال حياتها ، ثم انتقلت إلى جوار ربها فعاش مـــع بنَاته يقمن برعاية شئونه وهو دائب في الدعوة إلى الله لهداية قومه ولتغيير وجه مجتمعه ولتغيير العلاقات التي تحكم افراده ، انـه يغير الفكر من الوثنية إلى التوحيد ، ويغير علاقات الاقطاع والسيطرة والاستغلال إلى علاقات الحب والتعاون والايثار ، فكانت حياته كلها مع الجماهير يوجههم ويعلمهم [illegible] يبين لهم الطريق الذي يسلكونه ليصلوا به إلى حقوقهم ويؤكد لهم مضمون [illegible]ل الله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً [illegible]ل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » .

و[illegible]ن مكة إلى المدينة وعمره ثلاث وخمسون سنة .. وهو على الوفاء للزو[illegible] حياته ، على الوفاء لها بعد وفاتها ، فلم يفكر في الزواج حتى عرضته [illegible]دة مسلمة رقت له في عزلته فخطبت له السيدة عائشة باذنه ، وعائشة [illegible] الـكر الوحيدة بين زوجاته ، وهي ابنة صاحبه الاول ، وصديقه في الكفاح من اجل التمكين لدعوة الإسلام ورفيق نضاله الطويل ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

وبدا بيته في المدينة يدخل فيه زوجات كثيرات ، ولم يسجل التاريخ انه لم يختر واحدة منهن لجمالها او لنضارتها ، أو للمتعة والزينة ، وانما كان الاختيار بدافع من صلة الرحم ، والضن بهؤلاء النسوة على المهانة ومعظمهن كن ارامل

فقدن الأزواج أو الاولياء وليس هناك من يتقدم لخطبتهن من الاكفاء لهن ...

هذا العدد من النساء الذي وصل إلى عشر نسوة بعد خديجة كان يدخل بيت الرسول معتزاً بشرف الزواج من النبي المصطفى . وكانت الواحدة منهن لا تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من زوجات يشاركنها في رجلها حتى ترى فيه الزوج قبل الرسول ، ومن هنا كانت المغاضبة والغيرة التي تحتدم حتى تجاوز المدى ، وعشن معه حياته بكل ما فيها من معاناة ، وبكل ما تمثله من زهد فيها ليكون بيته نموذجاً للبيت المسلم في عفته ومروءته وعدم الاقبال على زينة الدنيا للحد الذي يرفه صاحبه ، ويجعله مترفاً لا يطيق حياة الشظف إذا طرأت عليه ولهذا كانت تقول عائشة :

لقد كان يمر علينا الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في [illegible] وما يوقد في أبيات رسول الله نار للطعام ، ويقول عبدالله بن الزبير ابن [illegible] اسماء متعجباً : يا خالة ، وماذا كان يعيشكم ؟؟ فتقول الاسودان : التمر و[illegible] ..

لقد أقام هؤلاء الزوجات في بيت لا يجدن فيه من الرغد [illegible] زوجات في بيوت الكثيرين من الرجال مسلمين كانوا أم غير مسلمين .. [illegible] حياة الخشونة والحرمان عليهن ، ورأين كيف تعيش زوجات الرج[illegible] الجاه والثروة ، وما سمعنه عن نساء مملكة كسرى وقيصر ، و[illegible] من زينة ومتاع ، اتفقن على مفاتحته في الأمر ، واجتمن يسألنه [illegible] من [illegible]قة وهي موفورة لديه لو شاء أن يزيد في نصيبه من الفيء * إلا أن الرجل الذي كانت تنساب بين يديه الغنائم ويجمعها في فناء مسجده ، ولا يقوم من مكانه حتى يوزعها ، لم يقبل أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة فامهلهن شهراً وخيرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه ما للمرأة المفارقة من المتاع الحسن أو يقبلن ما قبله لنفسه من ذلك العيش الكفاف . وجلس في داره مفكراً في أمره ، وأقبل أبو بكر فوجد الناس جلوساً في المسجد ولا يؤذن لأحد منهم

بالدخول إلى بيت النبي ، فدخل أبو بكر الدار ولحق به عمر بن الخطاب ورأى النبي غاضباً وحوله نساؤه فأحب أبو بكر أن يداعبه بكلمة يسري بهـا عنه ، وكأنه فطن لسر هذا الوجوم فقـال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة – ويعني زوجته – سألتني النفقة فقمت اليها ، فوجأت عنقها ، فضحك النبي وقال : هن حولي كما ترى يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة ابنته يريد أن يعاقبها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة كذلك وهجر النبي نساءه شهراً ، يمهلهن ان يخترن بعد التفكير بين البقاء معه على القليل، وبين الانصراف بمتعة الطلاق، وبدأ بالسيدة عائشة فقال واني اريد ان اعرض عليك أمراً ، احب الا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك ، فسألته وما هو يا رسول الله فعرض عليها هـذا الاختيار ، فتفزع وتقول افيك يا رسول الله استشير قومي ؟ : بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة. وأجابت امهات المؤمنين بمثل ما أجابت السيدة عائشة وانتهت هذه الأزمة العنيفة بسلام ، بعد ان سجلها القرآن الكريم لتكون درساً مستفاداً للأمة كلهـا حتى تهتدي بهدي رسولها وهدي بيته النبوي الكريم ، قال تعالى :

« يا أيها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحيـاة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحاً جميـلاً . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ».

هل البيت الذي يضم أمثـال هؤلاء النسوة الفضليات يكون بيتاً أشبه ببيوت الحريم ، التي تتسم بسمات اللهو والزينة والمتـاع ؟ كلا .. الا هو بيت النبي الكريم الذي لم يتزوج الا لحكمة اجتماعية من زواجه ، ولن يكون للمتاع ادنى حظ من حياته بعد ان تقدم به السن ، وزاد عن ثـلاث وخمسين سنة ، واستعرض معي أيها القارىء نماذج من زوجاته لتعلم لم كان يتزوج ؟ ان من أهم البواعث كان الإرتباط بالرجال الذين آزروه في دعوته ، وعاونوه في رسالته ، ولهذا اختار عائشة بنت ابي بكر على صغر سنها واختار حفصة بنت عمر على

قلة وسامتها .. ثم اختــار ام سلمة ارملة قائده الذي استشهد في سبيل الله ، وعانت معه امرأته مـا عانت في الهجرة إلى الحبشة وفي الهجرة إلى المدينة ، ومن قبـــل هؤلاء كانت معه سودة ، وهي امرأة نزلت عن حقها من الرجال لتقدمها في السن . ولقد مات عنها ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ، ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها على ترك الإسلام ، أو تتزوج بغير كفىء لهـــا . فأية روعة في حياة الرسول إذا تزوج هذه المرأة صاحبة الموقف الصامد أمام تحديات الأعداء . ومن زوجاته السيدة هند بنت ابي امية وكنيتها ام سلمة ، مات زوجها عبدالله المخزومي وكان أيضاً ابن عمها اصابه جرح في غزوة احد فقضى عليه . وكان الرسول يعلم ان ابا بكر وعمر قد خطباها تكريماً لزوجها وبطولاتها فاعتذرت بكبر سنها ثم كرر عليها الخطبة حتى قبلت واصبحت من امهات المؤمنين .

والسيدة رملة بنت أبي سفيان تركت اباها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة لكن للأسف – تنصر زوجها وفارقها في غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبي الى النجاشي يطلبها من هذه الغربة وينقذها من أهلها إذا عادت اليهم ، ولعل في الزواج بها سبباً يصل بينه وبين ابي سفيان بوشيجة النسب فيميل بـه من الاعراض عن الدعوة إلى مودة تخرجه من ظلمات الشرك الى هداية الإسلام .

ويسجل التاريخ لها موقفاً رائعاً يدل على ارتباطهـا الوثيق ببيت الزوجية واخلاصها لمبـــدأ زوجها وعقيدته ، وهو فوق كل ارتباط آخر يربطها بأهلها وعشيرتها، لقد خرج ابوها ابو سفيان ولم يسلم بعــد – حتى قدم المدينة فدخل على ابنته رملة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقـال يا بنية ما ادري ارغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ فقالت بالأيمان والصدق لبيت الزوجية الطاهر بل هو فراش رسول الله ، وانت رجل مشرك فلم أحب أن تجلس عليه . ويتزوج السيدة جويرية بنت الحارث سيد قومـــه وكانت بين السبايا في غزوة بني المصطلق فأكرمها من أن تذل بالسبي وتزوجها

واعتقها وحض المسلمين على اعتاق سباياهم فاسلموا جميعاً وحسن اسلامهم وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء عند رسول الله فاختارت البقاء في بيت رسول الله ، تشارك سائر نسائه حياتهن الجادة .

والسيدة حفصة بنت عمر مات زوجها فعرضها أبوها على ابي بكر فسكت وعرضها على عثمان فسكت وبث عمر اسفه للنبي فلم يشأ ان يضن على صديقه بالمصاهرة التي سعد بها ابو بكر من قبل وقال له « يتزوج حفصة من هو خير لها من أبي بكر وعثمان » .. وكان ذلك حقاً فقد تزوجت رسول الله .

والسيدة صفية بنت حيى بن اخطب بنت سيد بني قريظة وقعت اسيرة بيد المسلمين فخيرها النبي بين ان يردها الى اهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت الثاني، ونأتي الى السيدة زينب بنت جحش ابنة عمته وكانت زوجاً لمتبني الرسول وهو زيد بن حارثة ولما قربت منه نفرت منه وعز على زيد ان يروضها على طاعته ، فاذن له النبي في طلاقها وتزوجها فالإذن موجود والباقي هو التنفيذ .

والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبدالله بن جحش شهيداً في غزوة احد فتكفل بها الرسول اذ لا كفيل لها من قومها ..

وهكذا كان زواجه لأهداف انسانية واجتماعية ولا يعقل ان تكون المتعة احد دوافعه فسنه لا يسمح بهذا الاستمتاع كما ان اختياره للزوجات كان له معيار واحد ، وهو الحاجة الى الرعاية ولم يخطر على البال ابداً توهم انه كان يتزوج للشهوة ، ومن منهن التي يكون الزواج منها لمجرد الشهوة وكلهن ثيبات وفيهن العجوز الشمطاء ، وفضلاً عن هذه الأهداف النبيلة لزواج الرسول فان بيته أنموذج للبيت المسلم في كل زمان ومكان وكل ما يصدر عن الرسول من قول او فعل يتصل بالعبادة تشريع ، فإن المجتمع في حاجة الى ان يعرف افعال

الرسول واقواله وهو في بيته ليكون ذلك مسؤولية زوجاته امهات المؤمنين تطبيقاً لنص القرآن الكريم :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً » . فهن مبلغات للوحي مبلغات للمؤمنين والمؤمنات هدى الرسول العظيم في بيته الكريم .

« دعوة محمد .. دعوة الاتحاد والوحدة »

بقلم : الدكتور محمد الطيب النجار

كانت دعوة محمد بن عبدالله ﷺ دعوة الاتحاد والوحدة ، عرفها الناس على هذا الأساس منذ اشرقت الأرض بنورها الوضاء ، ومنذ انبعث الحق المبين ونادى بـه النبي الأمي العربي في بطحاء مكة ، ووسط الظلمات المتكاثفة التي كانت تخيم على ارجاء الجزيرة العربية . من العقيدة الفاسدة والعصبية القبلية المدمرة والاثرة الطاغية الباغية .

فحينما ظهر الاسلام الحنيف كانت الأمة العربية مجموعة من القبائل المتنافرة المتدابرة وكان عددها ثلاثمائة وستين قبيلة ولكنها – على كثرتها – ضعيفة هزيلة إذ كان بأسها بينها شديداً،وكانت كل قبيلة مشغولة بنفسها لا يعنيها إلا مصلحتها الخاصة ولو هدمت بذلك آمال غيرها من القبائل .. ولكل قبيلة رئيسها السيد المطاع الذي لا يعقب على حكمه . ولا يعصى له أمر مهما جر عليهم من الويلات والمتاعب ، ولكل قبيلة إلهها الخاص بها وهو الملاذ الذي تلجأ اليه في الخطوب، وتستعين به إذا مسها الضر ونزلت بهـا النوازل . ومن عجب أن يكون هـذا الإله حجراً لا يضر ولا ينفع ولا يبصر ولا يسمع ، بـل ولا يملك كشف الضر والأذى عن نفسه حتى يمكن أن يكشفه عن غيره .. ولو تتبعنـا تاريخ العرب أيام الجـاهلية .. وتسمعنا إلى أحاديثهم وأشعارهم لراعتنا تلك العصبية القبلية

الخبيثة التي كانت تجعل من كل قبيلة دولة مستقلة لا تقف دون مطامعها المادية والأدبية حواجز أو حدود . وطالما ثارت الحروب بين القبائل من أجل تلك المطامع فأزهقت الأرواح وسالت الدماء ، وتناثرت الجثث والاشلاء ومن ذلك ما وقع بين خزاعة وجرهم ، وبين بكر وتغلب ، وبين الأوس والخزرج ، إلى غير ذلك من سائر الأحداث الكبار الجسام .. لقد بزغت الدعوة الإسلامية في هذا الظلام الحالك وبين تلك الأعاصير الحمقاء فأشرقت على العالم بدستور قوي متين يدعو إلى مكارم الأخلاق ، وينشر العدل والمساواة بين جميع الامم والأفراد ، وينظم العلاقات بين الفرد والجماعة ، وينفي الفوارق بين العرب والعجم ، وهكذا جاء حافلا بالفضائل كفيلاً بانقاذ الناس والسير بهم إلى شاطيء الأمن والسلام ..

ودعوة الإسلام إلى الاتحاد واضحة صريحة وقد بنيت على أساس سليم هو الاخوة بين الناس جميعاً ، وعدم التفاضل بالاحساب والانساب ، أو الجاه والسلطان ، أو الرتب والالقاب . وانما يقاس الفضل بالعمل . ويكون المثقال الذي يوضع في الميزان هو الاخلاص والايمان . وفي ذلك يقول الله عز وجل : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » ويقول الرسول ﷺ : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » . ثم ينادي في حجة الوداع أمام قبائل العرب جميعاً فيقول : «أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى..» وحينما سرقت فاطمة المخزومية وكانت من قبيلة شريفة جاء أسامة بن زيد ليشفع لها حتى لا يقيم الرسول الحد عليها ، فغضب رسول الله ﷺ ثم قال : « إنما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

.. ولم تكن هذه المبادىء الإنسانية العادلة قولاً مأثوراً، أو كلاماً مسطوراً فحسب ، ولكنها كانت حقيقة واقعة تجلت في جميع أعمال الرسول ﷺ وأصحابه المخلصين . اذا انمحت من نفوسهم تلك المبادىء الهدامة التي كان لا يقاس الرجل فيها بخلقه وأدبه ومروءته ، وانما يقاس بقبيلته وبطنه وفصيلته ، وأصبحوا ينظرون الى الناس بمنظار واحد ويزنونهم بميزان واحد .. فقبيلة « باهلة » — مثلاً — كانت في الجاهلية احط قبائل العرب حتى لقد قال القائلون فيهم : —

وما ينفع الاصل من هاشم
اذا كانت النفس من باهلة

وقال الآخرون عنهم :

لو قيل للكلب يا باهلي
عوى الكلب من شؤم ذاك النسب

هذه القبيلة التي كانت في الجاهلية على هذا الوضع المشين المهين اصبحت بعد الاسلام تقف جنباً الى جنب مع سائر قبائل العرب في صفوف متساوية لا تحجز بينهم فواصل الطبقية المزرية والعصبية المخزية .. وأصبح الاسلام مناط فخرهم ودعامة مجدهم وشرفهم اذ رأوا في سماحته العادلة وعدالته السمحة ما يغني عن عن الحسب والنسب والرياض والنشب فكانوا يقولون — وبحق ما يقولون :

فنحن بنو الاسلام والله واحد
واولى عباد الله بالله من شكر

وقد وضع رسول الله ﷺ المخلصين من الاعاجم في صف المخلصين من العرب جنباً الى جنب ، وكتفاً الى كتف تحت ظلال الاخوة الاسلامية الوارفة .

وقدم المخلصين من الاعاجم على كثير من العرب الذين لم يتوافر لهم مثل هـذا الاخلاص .. فبلال بن رباح الحبشي كان من خاصة المقربين لرسول الله ولسائر المسلمين، وقد رفعه الرسول باخلاصه وبلائه في الاسلام الى أعز مكانة وأسماها، وسلمان الفارسي كان من المقربين لرسول الله ولسائر المسلمين ، وهو الذي تولى قسم الغنائم بين المسلمين في واقعة جلولاء حتى لقد انسته عدالة الاسلام جنسيته فكان يقول مفتخراً : أنا ابن الاسلام ، وصهيب الرومي كان - كذلك - من المقربين لرسول الله ولسائر المسلمين وهـو الذي قدمه عمر بن الخطاب على المهاجرين والانصار فصلى بهم اماماً . وهو تقدير يشير الى هدف عظيم وينطوي على معنى كبير .

وفي ظل هذه الاخوة الكاملة لا بد أن يسود التعاون والتضامن ، وتنمحي العداوة والبغضاء ثم يكون الاتحاد بين الأفراد والجماعات ، وبـين الامم والشعوب ، ولا بد أن يسموا هذا الاتحاد في مظهره ومخبره فلا ينفذ اليه طعن ، ولا يصيبه الضعف والوهن ، بل يتحقق فيه ما اشار اليه الرسول ﷺ حيث قال « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .. ولقد بدأ رسول الله ﷺ في تحقيق هذا الاتحاد بين قبائل العرب بعد ان هاجر من مكة الى المدينـة ، فوضع بذلك أساس القوة لدولة الاسلام الجديدة .. ذلك بأن الاوس والخزرج كان بينهم - منذ استقروا في يثرب - صراع قوي على المجـد المادي والادبي اوجدته العصبية القبلية التي كانت تمشي في أرجاء الجزيرة العربية كما يمشي الوباء. وتسري بين القبائل والبطون كما تسري النار في الهشيم.. « لا تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم » . وكثيراً ما أدت تلك العصبية بين الاوس والخزرج الى حروب داميـة رهيبة لم تكن تهدأ حيناً الا لتبدأ من جديد قوية عنيفة . وكان آخر هذه الاحداث ما وقع بين الفريقين في يوم بعاث ، وهو يوم مشهود في تاريخ الاوس والخزرج هلك فيه قادتهم ورؤساؤهم وتصدعت قوتهم وتعرض مركزهم في يثرب للدمار والانهيار ، وابتدأ جيرانهم اليهود يقيمون على أنقاض

هذا الضعف قوة كبيرة جعلت الاوس والخزرج –حينئذ– يعضون بنان الندم ، ويحسون بالخطر الداهم يحيط بهم . ويتلفتون ذات اليمين وذات الشمال الى القطب المرشد والربان المنقذ والمرفأ الامين .. ثم أراد الله لهذا الليل الطويل ان ينجلي بصبح جميل ، فجاء محمد بن عبدالله ﷺ الى المدينة يحمل بين يديه الهدى والرشاد ، فقضى على الفرقة وجمع الشتات وأحيا الله به القلوب وألف بينها في جامعة متينة من الاخوة والمحبة.. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: « لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

ولقد حول الاسلام ذلك التيار العنيف الذي كان يغذي العصبية القبلية في نفوس الاوس والخزرج الى وجهة كريمة هي الغيرة المحمودة والتنافس الشريف الذي يسعى الى اجل قصد وانبل غاية ، وهي اعلاء كلمة الاسلام ، والقضاء على اعدائه الالداء في كل مكان ، فصار الاوس والخزرج يتجهون الى هدف واحد ، هو ارضاء الله ورسوله : ولكنهم يتسابقون في هذا السبيل ويتنافسون تحت زعامة واحدة ، وقيادة واحدة هي زعامة محمد ﷺ وقيادته ..

ثم توج هذا الاتحاد الثنائي بين الاوس والخزرج بانضمام المهاجرين اليه وذلك بالاخوة التي عقدها الرسول ﷺ بين الانصار وهم الاوس والخزرج ، وبين المهاجرين . وهي اخوة نادرة المثال كانت تمليها الظروف الحرجة التي كانت تحيط حينئذ بالمهاجرين حيث تركوا اوطانهم وأخرجوا من ديارهم ظلماً وبغير حق . وذهبوا الى المدينة بلا أهل ولا مال ولا ولد .. فآخى رسول الله ﷺ بين الانصار والمهاجرين ، وجعل لهذه الاخوة من الحقوق والواجبات ما لأخوة النسب ، وقد عرف الانصار واجبهم نحو اخوانهم المهاجرين ، وقدروا ظروفهم العصيبة ، فآووهم ونصروهم ، وضربوا في الاخلاص لهم والتفاني في خدمتهم أروع الامثال ، حتى لقد وصفهم الله عز وجل بهذا الوصف الرائع حيث يقول

عنهم : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » . اي يفضلون اخوانهم المهاجرين على أنفسهم مهما كان فقرهم ومهما اشتدت حاجتهم .

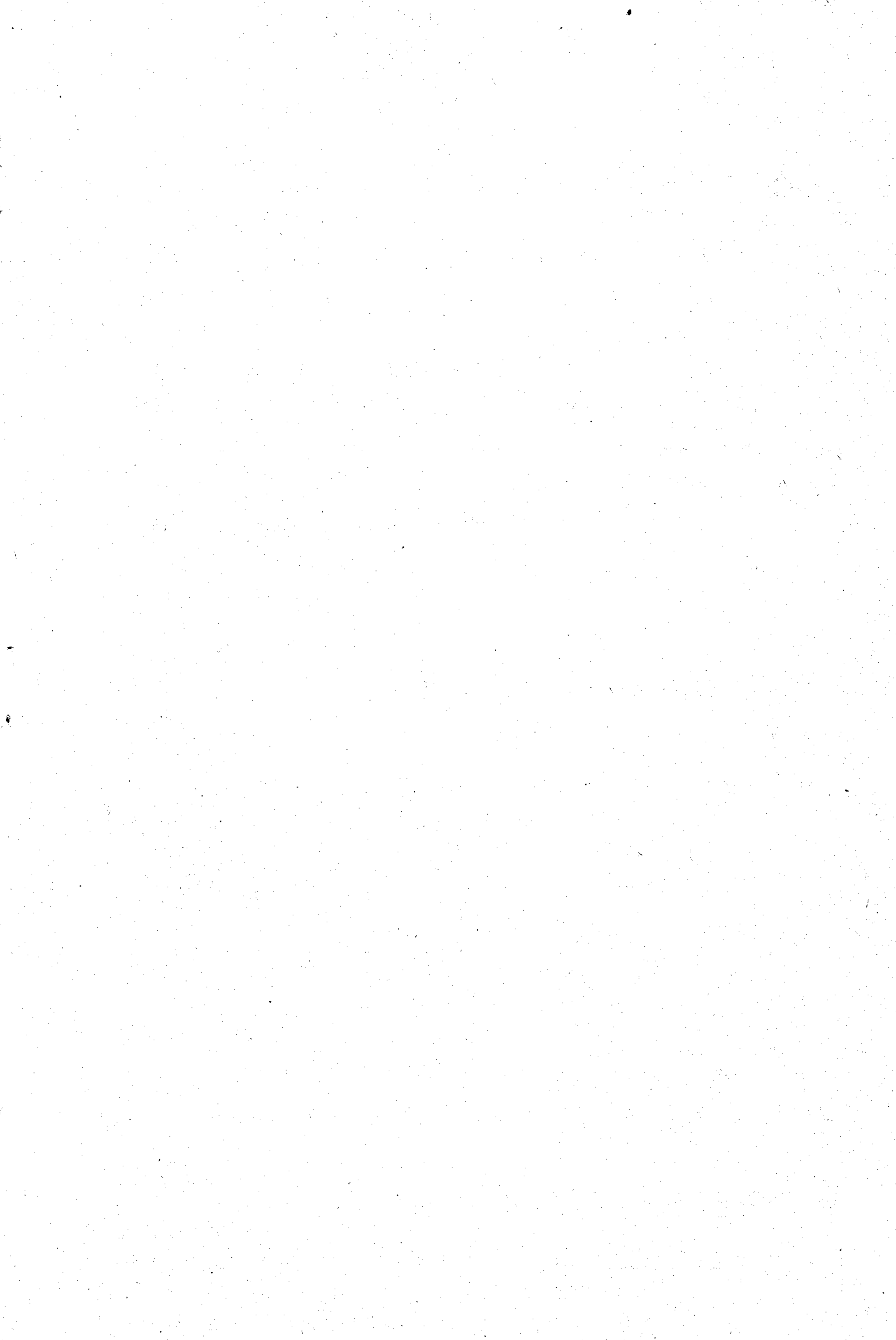
وبهذا الاتحاد الثلاثي بين الاوس والخزرج والمهاجرين وضع الاساس للدولة العربية الاسلامية فكان أول اتحاد مثالي من نوعه ، وأصبح المنارة الساطعة التي يهتدي بها الضالون الحائرون . ثم تتابعت بعد ذلك قبائل العرب تنضم إلى هذا الاتحاد ، وتنضوي تحت رايته ، حتى اذا كان العام الثامن الهجري ، وفتحت مكة المكرمة ودخل النـــاس في دين الله افواجاً ، اذعنت قريش وانضوت تحت لواء المسلمين ، فكان انضمامها الى المسلمين واتحادها معهم حافزاً لسائر القبائل العربية لتعلن الانضمام الى محمد ﷺ ، ولتكون الجزيرة العربية – في جملتها – أمة واحدة ودولة واحدة .

ولما لحق الرسول ﷺ بالرفيق الاعلى كانت دعوة الاسلام دعوة عالمية ، كان على اصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ان يتموا هذا البناء ، وان ينشروا دين الله في سائر الارجاء ، فكانت الفتوحات الاسلامية التي أذن الله أن تمتد من بـــلاد الصين شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ، ومن سهول آسيا وجنوب غرب اوروبا شمالاً الى المحيط الهندي والصحراء الافريقية الكبرى جنوباً ، وظلت هذه الرقعة الواسعة آماداً طويلة وهي دولة واحدة يحكمهـا خليفة واحد ...

واذا كان الاتحاد الثلاثي الذي قـــام في يثرب على يدي الرسول ﷺ بين الاوس والخزرج والمهاجرين قد بدأ في نطاق ضيق محدود ، ثم أراد الله له أن يكون أساساً لوحدة قوية واسعة تجـــاوزت الحدود ، واخترقت الحواجز والسدود ، فليس على الله بعزيز ان يكون الاتحاد الثلاثي الذي بـــدأ في هذه الايام بين مصر وليبيا وسوريا أساساً لوحدة عربية شاملة ، وهي الدولة العربية الكبرى التي ستضم بلاد العرب جميعاً عما قريب ان شاء الله ..

واذا كان الاساس الذي قامت عليه الوحدة الاولى على عهد الرسول ﷺ هو الجهاد والايمان ، فإن الامل كبير في أن يكون لنا من ذلك عبرة فنبني قوتنا ونتخذ الطريق الى وحدتنا الكبرى في ضوء الجهاد والايمان، لتقوم الدولة القوية التي تحطم الاغلال وتحقق الآمال .

– واذا كان اليهود قد فزعوا من تلك الوحدة التي قامت بين الاوس والخزرج والمهاجرين على عهد الرسول ، وأخذ نفوذهم منذ ذلك الحين ينقص ، ومجدهم يتضاءل ويتقلص ، ثم كتب الله عليهم بعد ذلك الجلاء والفناء ، فان اليهود في هذه الايام يعيشون في جو حالك السواد محاط بالخوف والفزع .. وان الهوان الذي لحقهم على عهد الرسول ﷺ لينتظرهم ، ويومئذ يخرج اليهود من بلاد العرب ويكتب الله عليهم الجلاء .. وصدق الله العظيم حيث يقول : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »



محمد
واول دستور للدولة الاسلامية

بقلم : محمد عماره

في مكة ، قبل الهجرة ، كان الذين اسلموا يكونون « جماعة مؤمنة » تتحدى المقومات الأساسية للمجتمع المكي القائم على الشرك والاستبداد والاستغلال .

أما بعد الهجرة فان هذه « الجماعة المؤمنة » قد اصبحت نواة مجتمع جديد فأقامت للإسلام دولة ، أخذت تستكمل شيئاً فشيئاً مقومات الدولة .. وبمقاييس ذلك العصر وامكانيات واقع ذلك المكان نستطيع أن نقول ان هذه « الجماعة » المؤمنة قد استكملت لدولتها العربية الإسلامية الأولى كل مقوماتها، تقريباً ، قبل وفاة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، أي بعد عشر سنوات من هجرته إلى « يثرب » عاصمة هذه الدولة ، والمركز الجديد الذي انتشر منه الإسلام .

أما مقومات هذه الدولة فهي ، بالدرجة الأول ، ذلك الدستور الذي وضعه الرسول ﷺ في صورة « صحيفة » و « كتاب » تحكم نصوصه ومواده علاقات المواطنين الذين اظلتهم هذه الدولة الجديدة ، سواء منهم من اسلم وآمن ، أو من

أسلم في الظاهر ولكن لم يدخل الايمان قلبه ، أو اولئك الذين احتفظوا علانية بدينهم القديم .. وبعد هذا الدستور تأتي اللبنات التي قامت واحدة بعد الأخرى ، والتي تمثلت في (جهاز الدولة) الذي يحمي دعوتها ويدافع عن فكرها ، ويحقق لها الأمن والعدل ، ويهيىء لها وسائل الاستقرار وعوامل الازدهار ..

ويخطىء البعض عندما يتصورون ان الرأي القائل بأن الإسلام لم يقم دولة وان رسوله نبي وليس بحاكم ، هو أقرب الآراء إلى المنهج العلمي في التفكير والمنهج الاجتماعي في دراسة التاريخ ، وتاريخ الدعوات الكبرى والأديان على وجه الخصوص . ذلك ان الرأي القائل بأن البناء الذي أقامه الرسول ﷺ بالمدينة إنما هو بناء ديني لا علاقة له بالدولة والسياسة إنما ينبع من موقف فكري يفصل بين الدين والمجتمع ، ويباعد بين مقومات الدين وحياة الذين اعتنقوا هذا الدين ، وهو موقف فكري يعني أن يرفض أصحابه اقامة أية خيوط أو صلات بين تعاليم الدين والعصر والمجتمع الذي ظهر فيه .. ولذلك فإن هذا الموقف الفكري هو أبعد المواقف الفكرية عن المنهج العلمي في التفكير والمنهج الاجتماعي في دراسة التاريخ ..

ولا أدل على فساد هذا الرأي ، فيما يتعلق بموضوع الدولة العربية الإسلامية الأولى ، من تلك الملامح والقسمات التي قامت ونمت بالمدينة عند هجرة الرسول اليها ، ومن ذلك الدستور الذي حدد رعية الدولة الجديدة ، وميز بين جماعاتها المؤمنة بالدين الجديد ، وتلك التي لم تؤمن به ، ولكنها رضيت أن تستظل براية دولته ، فكونت مع (المؤمنين) (أمة واحدة) لهم جميعاً نفس الحقوق السياسية وعليهم جميعاً نفس الواجبات .. مع احتفاظ كل جماعة بعقيدتها ودينها ..

ولا أدل على فساد هذا الرأي أيضاً من قيام ذلك البناء الذي نسميه « جهاز

الدولة » والذي نستطيع رؤية معالمه إذا نحن جمعنا تلك الشذرات المتفرقة التي تناثرت عنه في مختلف صفحات التاريخ وكتب الحديث.. وهي الشذرات التي إذا جمعناها أظهرت لنا بوضوح انه قد قامت للإسلام دولة منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وان دستور هذه الدولة ، وبعض اجهزتها يدل على انها كانت أوسع مدى من اطار « الجماعة المسلمة المؤمنة » ومن ثم فقد كانت لها جوانبها « المدنية السياسية » وانها قد اقامت روابط وخيوطاً بين الجانب الديني والجانب المدني السياسي ، وانها وان لم تكن « دولة دينية » – بالمعنى المتعارف عليه اليوم من هذا المصطلح – إلا أنها لم تفصل الدين عن الدولة. أي أنها قد ميزت ما بين الدين والدولة ، ولكنها لم تفصل بينهما فهي لم تقتصر على السلطة الدينية التي تعيش في اطار « الجماعة المؤمنة » وهي في ذات الوقت لم تقم الفصل والانقطاع بين مقومات الدين والايمان وبين مقومات السياسة وعناصر الحياة .. وان يكن هذا الفصل قد حدث بدرجات متفاوتة بعد وفاة الرسول عليه السلام .

جهاز جديد لدولة جديدة

قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة كان قد التقى سراً بعدد من عرب قبيلتي (الاوس) و (الخزرج) ، الذين يسكنون (يثرب) على امتداد ثلاثة مواسم من مواسم الحج الذي كانوا يقومون به إلى الكعبة في مكة.. وفي هذه اللقاءات تمت البيعة بينه وبينهم على الدخول في الدين الجديد ، وعلى نصرته ونصرة رسوله ، وخاصة عندما يهاجر اليهم ، ويجعل من مدينتهم عاصمة لهذا الأمر الجديد .. وفي البيعة الأولى كان الاتفاق مع ستة منهم ، وفي الثانية مع اثني عشر وفي الثالثة مع ثلاثة وسبعين رجلاً وثلاث من النساء .. وكانت هذه الجماعة مع من انضم اليهم من سكان المدينة ومن هاجر اليهم من مسلمي مكة

النواة الأول لرعية الدولة الجديدة ، والجماعة التي التف حولها وقام على اكتافها جهاز الدولة الجديد ..

ونحن إذا شئنا أن نقدم صورة واضحة المعالم والقسمات لهذا الجهاز الذي أقامه الرسول ومن تبعه بالمدينة لدولتهم الجديدة ، كان علينا أن نجمع هذه الملامح من عديد من صفحات التاريخ وكتب الحديث وكان علينا أيضاً أن نبصر حركة التطور والنمو في قيام هذا الجهاز وتكوينه ، وأن نقيم كل ذلك على ضوء معرفتنا بظروف ذلك المكان ، من حيث البساطة ومقاييس تلك الحقبة التاريخية ، فيما يتعلق بمقاييس أجهزة الدولة ، خصوصاً منها ما قام في شبه الجزيرة العربية بالذات ... فبهذا المنهج ، وبتلك المقاييس ستجتمع لدينا صورة واضحة لجهاز تلك الدولة التي قاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والمؤمنون من أصحابه بناءها وهي التي ارخت للعرب عصر بعثهم ونهضتهم ، وللشرق كله عصر تحرره من سيطرة الفرس والروم والبيزنطيين ..

الجهاز الفني والسياسي للدولة

شهدت هذه الفترة التأسيسية من حياة هذه الدولة ، والتي نعني بها الفترة التي سبقت وفاة الرسول عليه السلام ، قيام ما يمكن أن نسميه الجهاز الفني والسياسي لهذه الدولة العربية الإسلامية الجديدة .. فلقد كان لها مثلاً :
الكتبة : يقومون بأعمال الكتابة للوثائق والمراسلات والعقود والعهود ... ومن هؤلاء الكتبة من كانت مهمته تحرير الرسائل التي يبعث بها الرسول إلى القبائل والملوك والأمراء .. ومنهم من كان يحرر العهود والمعاهدات التي تبرم بين الرسول والاطراف الأخرى .. ومنهم من كان يحرر الشروط والمداينات والمعاملات المالية والمنح والاقطاعات التي تعطى إلى أمراء الأجناد ، أو إلى من يرغب في احياء الأرض واستصلاحها واستزراعها .. ومنهم من كان يدون

الأموال التي تجمع من الزكاة وغيرهـا من الصدقات .. ومنهم من كان يكتب قوائم المحاربين في الجيش ، ومقدار العطاء الذي يخص كل محارب ، وما يحتاجه في تجهيز نفسه للحرب من خيل وأدوات قتال ..

وتتناثر في الكتب التي أرخت لهذه الفترة التأسيسية من فترات حياة هذه الدولة أسمـــاء الذين نهضوا بعبء (الكتابة) هذا ومنهم (ابي بن كعب الانصاري) و (زيد بن ثابت) و (عبدالله بن الارقم الزهري) و (علي بن أبي طـــالب) و (عبدالله بن عمر) و (معيقب) و (المغيرة بن شعبة) و (الحصين) و (الزبـير بن العوام) و (جهيم بن الصلت) و (حذيفـة بن اليمان) .. الخ .

ولقد كانت لبعضهم اختصاصات محـــددة ، وأنواع معينة من (الكتابة) يختص بها ، ويستدعى لها ، دون غيره من الكاتبين ..

والمترجمون : وهم الذين كانوا يقومون باعمال الكتابة باللغات غـير العربية إلى غير العرب ، وأيضاً بترجمة الرسائل غير العربية الواردة إلى الدولة الجديدة كما كانوا يقومون بالترجمة بين يدي الرسول عليـــه الصلاة والسلام للخطب والاحاديث المتبادلة في حضرة السفراء والوفود القادمة من خارج شبه الجزيرة العربية ... وفي مقدمة الذين ذكرتهم لنا كتب التاريخ من الذين قاموا بعمـل الترجمة هذا زيد بن ثابت الانصاري النجاري (الذي كان يكتب للملوك ، ويجيب بحضرة النبي وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية .. تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الالسن) .

والسفراء: وهم الذين أهلتهم امكانياتهم للقيام بالسفارة لدى الأمراء والملوك والحكام الذين بعث اليهم الرسول بالرسائل والمكاتبات وفي مقدمـة هؤلاء (دحية الكلبي) و (عبدالله بن حذافة السهمي) و (عمر بن عمـــير بن سلمة

اللخمي) ، و (عمر بن أمية الضمري) وهم الذين ذهبوا في سفارات على بلاد الروم وفارس ومصر والحبشة ...

والشعراء : الذين كانوا يتصدون لدعايات الخصوم وأكاذيبهم ، فكانوا بمثابة أجهزة للاعلام والمناظرة والدعاية والاثارة والتوجيه .. ويذكر لنا التاريخ في مقدمتهم (حسان بن ثابت الانصاري) و (عبدالله بن رواحة) و (كعب ابن مالك) .

بل لقد كان لمراسلات الدولة شعار رسمي ، هو الخاتم الذي اصطنعه الرسول لهذا الغرض ، وكان لهذا الخاتم من يختص بحمله ، وهو (المعيقب بن ابي فاطمة الدوسي) حليف آل سعد بن العاص .. كما أقامت الدولة (دار ضيافة) عامة ينزل فيها الزوار والوفود . ولقد اتخذوا لذلك (داراً واسعة فيها نخل) هي دار (رملة بنت الحارث النجارية) .. وممن كان يقوم على أمر دار الضيافة هذه (خالد بن سعيد بن العاص) و (بلا بن رباح) و (ثبوبان) غلام الرسول عليه السلام .

حكام الاقاليم

ومنذ وقت مبكر عرفت هذه الدولة نظام الحكام الاداريين على المدن والاقاليم .. وأول ما عرفت هذا النظام عرفته في المدينة ، العاصمة ، عندما كان الرسول عليه السلام يغادرها على رأس الجيش المحارب في الغزوات .. فكان يستخلف على العاصمة من ينوب عنه فيها مدة غيابه عنها .. وممن قام مقام الرسول في مهمة الحكم السياسي والاداري هذه ، في تلك الفترات ، (علي بن أبي طالب) و (سعد بن عبادة) و (محمد بن مسلمة الانصاري) .

وعندما امتد سلطان الدولة الجديدة إلى ما وراء (المدينة) كانت تقترن

هذه السلطة وتتمثل ضمن ما تتمثل في ذلك الوالي والأمير الذي يعين حاكماً على هذه المدينة أو ذلك الاقليم .. فعندما فتحت مكة ، عين الرسول عليها والياً هـو (عتاب بن اسيد بن أبي العيص بن امية بن عبد شمس) وقال له (انطلق فقد استعملتك على أهل بيت الله) ، واجتمعت لعتاب بن أسيد هذا امارة الحج إلى جانب امارة مكة واستمر في الامارة عليها من سنة فتحها حتى توفي مع أبي بكر الصديق .. وإلى جوار هذه الامارة السياسية على مكة كانت هناك وظائف دينية متفصلة ومتميزة ، مثل (حجابة البيت الحرام) وهي التي كانت تسمى (عمارة البيت) أو (سدانة الكعبة) .. ولقد تولاها من بني عبد الدار : (عثمان ابن أبي طلحة) ، و (شيبة) ..

أما في (اليمن) بعد فتحها ، فلقد عين الرسول ، عليه السلام ، أحـد أمرائها السابقين الذين اسلموا واسمه (باذان) حاكماً عليها ، وبعد وفاته عين ابنه حاكماً على (صنعاء) .. كما عين (فروة بن مسيك المرادي) حـاكماً على (مراد) و (زبيد) و (مزحج) .. وفي (البحرين) تولى الامارة (العلاء ابن الحضرمي) فكانوا حكاماً إداريين وسياسيين لهذه الأقاليم .

الجهاز المالي للدولة

عندما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام ، من مكة إلى المدينة ، اتخـذ قراراً ذا دلالة هامة على الطابع السياسي والملامح المالية والاقتصادية لذلك البناء الجديد الذي أقامه المسلمون هناك .. فلقد قام بتوحيد المكاييـل والموازين في المجتمع الجديد ، واختار في عملية التوحيد هذه وحدات المكاييـل التي كانت مستعملة بالمدينة ، لأنهـا كانت موطن الزراعة والحاصيل ، كما اختار أيضاً وحدات الموازين التي كانت مستعملة في مكة ، لأنهـا كانت موطن التجارة ، وسوق العرب الكبرى في ذلك الحين .. ولقد عبر بذلك عن الارتباط الوثيق

بين بناء الدولة الجديدة وواقع المجتمع الذي تبنى فيه ، وعن ان شئون الحياة هذه انما هي محكومة بمصالح الناس في هذه الحياة .

ونشأت وظائف متعددة ومتخصصة للقيام على الجانب المالي والاقتصادي في المجتمع الجديد .. وظائف للذين يقدرون الثروة قبل تحديد ما عليها من الضرائب وتمهيداً لهذا التحديد .. وكانوا يسمونه (الخارص) .. وممن تولى هذه الوظيفة (عبدالله بن رواحة) و (جبار ابن صخر بن أمية) و (أبو حثمة) .

وكانت لجباية الأموال حدود ومهام يتولاها موظف متخصص ، يقوم إلى جانب الحاكم الإداري والسياسي للاقليم ، ويتولى وظيفته هذه بكتاب خاص و (عهد) متميز . يقرؤه على أهل الاقليم الذي تعين فيه .. وممن تولى هذا العمل على عهد الرسول عليه السلام ، (عمر بن الخطاب) و (خالد بن سعيد ابن العاص) و (معاذ ابن جبل) و (ابي بن كعب) و (عدي بن حاتم الطائي) و (الزبرقان ابن بدر) و (قيس بن عاصم) و (علي بن أبي طالب) و (ابن اللتبية) .. كما تولى جمع الضريبة من غير المسلمين (أبو عبيدة بن الجراح) و (معاذ بن جبل الانصاري) ، (مروان بن الجدع بن زيد بن الحارث) و (مرداس بن مروان) .

أما غنائم الحرب فلقد تولاها في ذلك العهد (أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الانصاري) و (أبو سفيان بن حرب) و (أبو الجهم بن حذيفة بن غانم القرشي) و (بديل بن ورقاء الخزاعي) و (مسعود بن عمرو القاري) .. أما مراقبة (السوق) وقوانينه وأسعار سلعه ، وهي الوظيفة التي كانت فيما بعد جزءاً من عمل (المحتسب) فلقد عرفها ذلك المجتمع على عهد الرسول عليه السلام ، وممن تولاها في سوق مكة بعد فتحها (سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية) ..

أما المواريث ومـــا كانت تحتاجه من حسابات فكان يتولاها (زيد بن ثابت) وكانت وظيفته هذه تسمى وظيفة (فارض المواريث) .

الجهـــاز القضائي

وهو الجهاز الذي عهدت اليـه الدولة بالفصل في المنازعات ونظر المظالم في المجتمع الجديد ... وممن تولى هذه المهمة في اليمن (علي بن أبي طالب) .. وفي اقليم (الجند) باليمن تولى القضاء (معاذ بن جبل) .. كما ثبت ان الرسول ﷺ قد قام بالنظر في القضايا وخصومات الناس وكذلك (عمر بن الخطاب) .

ولقد كان هذا الجانب من جوانب (القضاء) يسمى (الايجاب) أي ايجاب الحكم .. وكان يكمـــله جانب (الاستيعاب) أي تنفيذ هذا الحكم وممن تولى التنفيذ للاحكام القضائية في ذلك العهد (علي بن أبي طالب) ، و (محمـــد بن مسلمة الانصاري) ... بل لقد عرفت هذه الدولة الوليدة من أجهزة العقاب المشهورة (السجن) واتخـذ لذلك في المدينة مكان هو دار امرأة من الانصار تسمى (بنت الحارث) .. كما اتخذت بباب المسجد بالمدينة (حظيرة) حبست فيها بعض النساء .

كما قام بالمدينة نظام وليد للشرطة (العسس) .. وذلك علاوة على الحرس الذي كان يقوم على حمـــاية الرسول عليه الصلاة والسلام في بعض الأماكن والمناسبات .. ولا نتكلم عن الجيش ، فأمره معروف ومشهور .

نظرة على الدستور

وإذا كانت هذه القسمات والملامح كافية في الدلالة على قيام (جهاز الدولة) على عهد الرسول عليه السلام ، ومن ثم تأسيس الدولة العربية الإسلامية الأولى

منـــذ ذلك التاريخ .. فان النظر في دستور هذه الدولة الذي وضع على أهم القسمات التي حكمت علاقات رعية هذه الدولة والمبادىء الساميــة التي كونت مضمون مواد هذا الدستور .

فقد حددت مواد هذا الدستور أن الذين آمنوا بالدين الجديد من المهاجرين والانصار ، (من قريش ويثرب) يكونون (أمة واحدة من دون الناس) .. ومع هؤلاء المؤمنين يأتي (من تبعهم ولحق بهم ، وجاهد معهم) .. فإذا علمنا انه قـــد كان من بين الذين جاهدوا مع المؤمنين أقوام من (الاعراب) و (المنافقين) و (المؤلفة قلوبهم) الذين يحاربون للاجر لا للعقيدة .. علمنا أن هذه(الأمة) كانت القيادة والنواة..وانها قد استقطبت وقادت كل الذين ارتبطوا سياسياً بالمجتمع والنظام الجديد .. وفي هذا الأمر مـا فيه من وضوح الطابـع السياسي والمدني لهذا البناء السياسي الجديد .

لقد عدد الدستور القبائل والأحياء التي تتكون منها هذه (الأمة الواحدة من دون الناس) وأقر كلاً منها على ما هو صالح من العادات والقيم والتقاليـد وذلك تعبيراً عن وراثة المجتمع الجديد واستفادته واحترامه لكل تراث صالح عاش في هذه البيئة قبل ظهور الدين الجديد ..

ثم حدد الدستور ان مجرد الانتماء إلى (الجماعة المؤمنة) لا يمكن أن يكون سبيلاً للخروج عن العـــدل ، أو ارتكاب الظلم والاثم والعدوان ، فنص على (أن المؤمنين المتقين على من يغي منهم) أو سعى إلى (ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين) وان هذه الجماعة ستقف ضد هذا الخارج عليها ، وتضرب بكل قواها المجتمعة على يديه حتى (ولو كان ولد أحدهم) .

كما قنن الدستور ذلك التضامن المالي والاقتصادي الذي أقامه الرسول بالمدينة بعد الهجرة اليها ، بين المهاجرين أولاً ، ثم بين المهاجرين والانصار بعد ذلك ،

وهو الذي عرف (بالمؤاخـــاة) ، وتضمن اشتراكهم في المعاش والرزق ، والمساهمة بينهم فيه .. وهي المساواة التي ظلت مستمرة حتى بعد ان نسخت آية (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) نظام التوارث بـــين المتآخين ، وجعلته في الأقارب وذوي الأرحام .. لقد قنن الدستور هـــذا الجانب الاجتماعي المتقدم عندما نص على (ان المؤمنين لا يتركون) من أثقله الدين أو كثرة العيال بل يعطونه ما يدفع عنه الحاجة والاحتياج .

ثم يمضي الدستور ليقرر ويبرز ملامح (القسمة المدنية) في هـــذه الدولة عندما يعلن ان هذه (الجماعة المؤمنة) تكون مع غير المؤمنين ، من اليهود الذين دخلوا في الدولة الجديدة دون الدين الجديد تكون هذه (الجماعة المؤمنة) مع تلك (الجماعة غير المؤمنة) (أمة واحدة) ، رغم اختلاف الدين .. وان لهذه الجماعة غير المؤمنة عقيدتها الخاصة التي لاتلتزم فيها (بالمؤاخاة) الاقتصادية القائمة بين المؤمنين .. وانمـــا تلتزم مع المؤمنين بالجوانب الأخرى التي تتعلق بنفقات الحرب الدفاعية عن المدينة والرامية إلى حماية المجتمع الجديد ..

والأمر الذي يؤكد وضوح هذه القسمة (المدينة السياسية) في ذلك البناء والتزام المسلمين بما حدده بصددها هذا الدستور ، ان الحرب التي شنها المسلمون على اليهود فيما بعد وضع هذا الدستور ، انما كانت حربــاً سياسية بسبب نقض اليهود لهذا الدستور الذي نص على وقوفهم معاً ضد مشركي قريش في الحرب والسلم ، فإذا بهم يتحالفون مع هؤلاء المشركين ، وينقضون العهد الذي دخلوا فيه مع الرسول ودستور المجتمع الإسلامي الجديد .

وأخيراً ينص الدستور على ان المرجع في تفسير ما يختلف عليه من مواده ، وما يحدث بـــين الملتزمين به انما هو الله ورسوله .. وبمعنى آخر كتاب الله وتفسير الرسول لهذا الكتاب ... وهو بذلك يميز ما بين المواد الدستورية التي تضمنتها هذه (الصحيفة) وبين القرآن الذي جـــاء بالهداية الدينية والارشاد

الروحي ، والمبادىء الكلية والمثل العليا في شئون الحياة .. فهو اطار عام في ضوء روحه ، وفي ظلال مثله العليا ويضع البشر من الدساتير والقوانين ما يقرب بهم من تحقيق المثل العليا التي يسعى اليها الانسان .. واعـين في ذلك شئون دنياهم التي هم أعلم بها ، والمثل العليا التي جاءهم بها القرآن الكريم .

وهكذا تكتمل لهـذه الدولة العربيّة الإسلامية الأولى مقومات الدولة .. جهاز وليد ينبع من طبيعة المجتمع وفكره الجديد.. ودستور يجسد هذا الحدث ويرعى ذلك البناء الذي أقامـه الرسول وصحبه منذ ما يقرب من اربعة عشر قرناً من الزمان . .

مراجع هذه الدراسة

١ – صحيح البخاري .

٢ – صحيح مسلم .

٣ – سيرة ابن هشام ج ٢ .

٤ – نهاية الأرب للنويري ج ١٦ ، ١٧ .

٥ – الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر .

٦ – نهاية الايجاز في سيرة ساكن الحجاز لرفاعة الطهطاوي .

صحيفة الدستور الاسلامي الاول

بسم الله الرحمن الرحيم !

هذا كتاب من محمد النبي ، ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم (أي على ما كانوا عليه) يتعاقلون بينهم (أي يتضامنون في دفـع الدية) وهم يفدون عانيهم (أي أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوف على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحـارث على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون فيما بينهم معاقلهم الأولى وكل طائفـة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم ، يتعـاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وان المؤمنين لا يتركون مفلوجاً بينهم (أي مثقــلا بالدين والعيال) أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

وانه لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (أي عطيــة) ظلم

أو إثم ، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان ايديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

وان ذمة الله واحدة يجبر عليهم ادناهم .

وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وان سلم (أي صلح وسلام) المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله عز وجل إلا على سواء وعدل بينهم .

وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

وان المؤمنين يبيء (أي يساوي) بعضهم عن بعض ، بمــا نال دماءهم في سبيل الله عز وجل .

وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وانه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

وان من اعتبط (أي قتل بــلا ذنب) مؤمناً قتلاً عن بينه فانه قود (أي قصاص) بـه ، إلا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا القيام عليه .

وانه لا يحل مؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ .

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وان يهند بني عوف أمة مــع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم ، إلا من ظــلم وأثم فانه لا يوتغ (أى يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

وان ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .

وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فانــه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

وان جفنة ، بطن من بني ثعلبة كأنفسهم .

وان بطانة ليهود كأنفسهم ، وانه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد وانه لا ينحجز عن ثأر جرح .

وانه من قتل فبنفسه فتك ، وأهل بيته إلا من ظلم .

وان الله على ابر هذا .

وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

وانه لم يأثم امرؤ بحليفه .

وان النصر للمظلوم .

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وان (يثرب) حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وان الجار كالنفس غير مضار ولا أثم وانه لا تجار حرمة إلا بإذن الله.

وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله .

وان الله على اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

وانه لا تجار قريش ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم (يثرب) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وانهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذين قبلهم .

وان يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

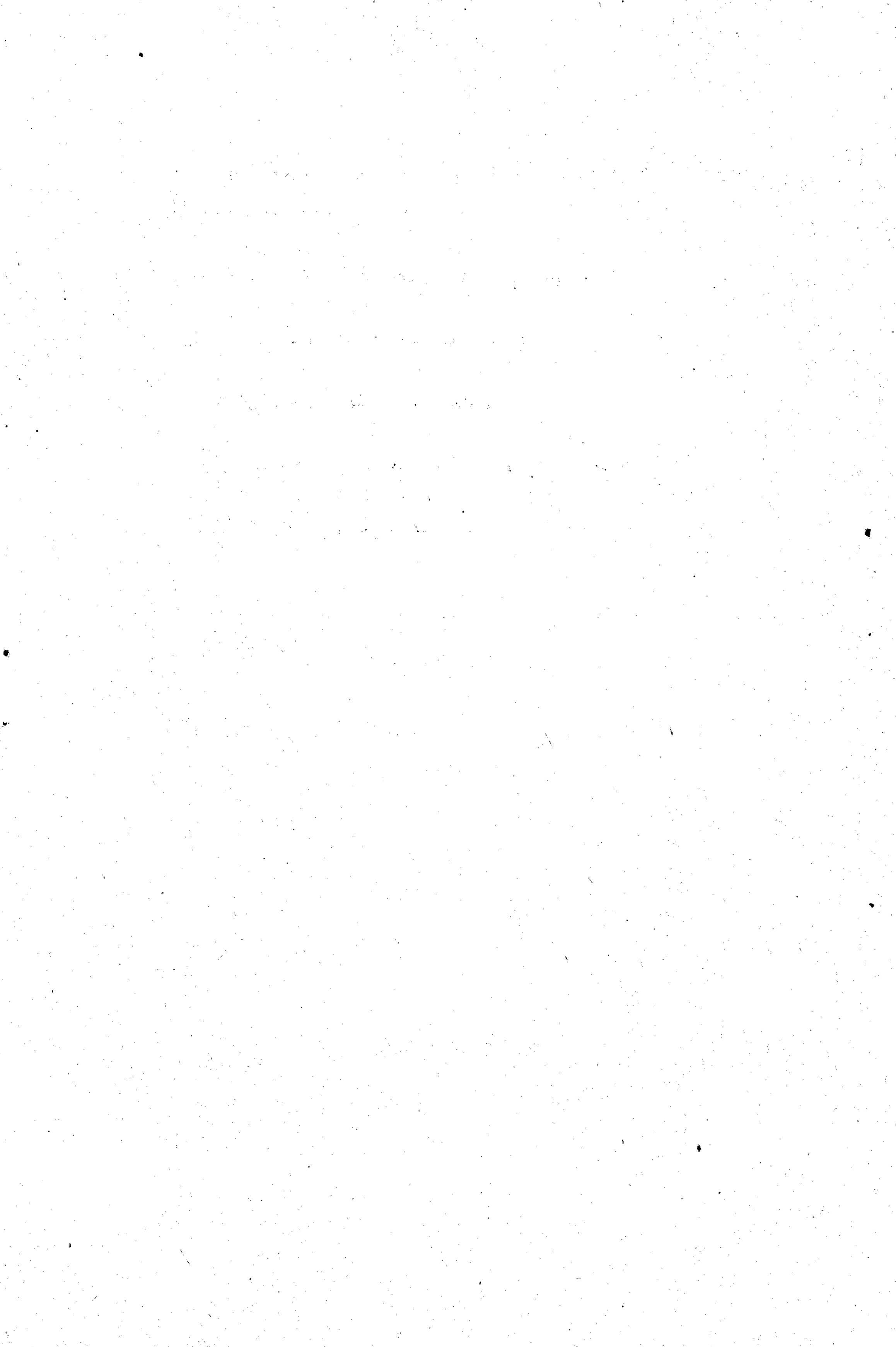
وان البر دون الاثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه

وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا اثم .

وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم

وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله) .



محمد والفنون

بقلم : عبد المجيد وافي

كلمة فن تطلق في عصرنا على مفاهيم واسعة من أنواع الابداع الفكري والصناعي ، ولكن العرف جملها عنواناً : على الفنون التشكيلية ، من تصوير ونحت وزخرفة وعمارة ، وعلى الفنون السمعية من موسيقى وغناء ومسرح وسينما .

ولم تكن كلمة (فن) على عهد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، تطلق على ما تعارفنا على تسميته فناً .

ولكن هناك أنواع من الملكات التي كانت منتشرة في فجر الإسلام يمكن أن تدخل في مفهوم الفن بعرفنا المعاصر .

فكان التصوير بأنواعه – مجسماً وغير مجسم – يدخل في ذلك المفهوم ، ومنه – على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – الرسوم على الثياب وعلى الجدران ، والتماثيل التي كان منها الأصنام التي كانت تعبد من دون الله ؛ تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

كما كان يدخل في ذلك المفهوم على عهده – صلوات الله وسلامه عليه وعلى

آله — من الفنون السمعية ، الخطابة وانشاد الشعر في المواسم ، وحداء القوافل والارتجاز بين المتفاخرين أو المتبارزين .

ويدخل في ذلك أيضاً أصوات الغناء ودق الدفوف وما إلى ذلك .

* * *

ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، موقف مباشر يهـــدف إلى إباحة شيء بعنوان الفن ، أو تحريم شيء بعنوان الفن .

وانما كان للرسول صلى الله عليه وآله وسلم مواقف محددة ، من اباحة أو تحريم لأمور أو أشكال تحسب على الفنون التشكيلية أو الفنون السمعية من ذلك موقفه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله من الأصنام والأوثان ، حيث حارب الأصنام أو الأوثان ، وجوداً ، وصناعة ، واقتناء .

وموقف الرسول من الاصنام أو الأوثان ، ليس لذاتها كفرع أو لون من ألوان الفنون التشكيلية ، ولكن لأنها تحمل مفهوماً دينياً ، لا يرضاه الإسلام بل يجابهه بالحرب ، ويأمر بإزالة كل ما يدل عليه .

إذ أن الاصنام والاوثان ، تماثيل لاشخاص ، كان لهم وجود فعلي في أزمان غابرة ، كرمهم قومهم ثم ارتفع التكريم إلى درجة التألية .

أو هي تماثيل لشخصيات خرافية ، يظن أن لها تأثيراً في حياة أو موت أو صحة أو مرض .

ولالتماس بركة هذه الاوثان ، والطمع في رضاها ، كانت تذبح لها القرابين من حيوان وانسان ، في مواسم معينة ، أو ايفاء نذر من النذور .

وموقف الرسول صلوات الله وسلامــــه عليه وعلى آله ، نابع من الوحي

الإلهي ، وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى في كتابه المنزل :

« فاجتنبوا الرجس من الاوثان » (آية / ٣٠ – من سورة الحج) .

« إنمـــا تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه وأشكروا له » (آية / ١٧ – من سورة العنكبوت) .

« إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحيـــاة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعص ، ويلعن بعضكم بعضاً » .

(آية / ٢٩ – من سورة العنكبوت)

كما ورد ذكرها باسم الأصنام في قوله تعالى :

« رب اجعل هذا البلد آمناً ، واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » ..

(آية / ٣٥ – من سورة ابراهيم)

« أتتخذ أصناماً آلهة ، إني أراك وقومك في ضلال مبين » .

(آية / ٤٧ – من سورة الأنعام)

وكثير غير ذلك من الآيات في الكتاب الكريم ، نعـــلم منها في جملتها وتفصيلها ، أن موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كان موجهاً بالوحي الكريم ، وهو موقف يؤيده العقل والطبع ، إذ كيف يصنع الانسان شكلاً ، من حجر أو معدن أو خشب أو طين ، ثم يقف منه موقف العـــابد من المعبود كيف يعبده وهو صنعة يده .

لذلك لم يلبث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يوم الفتح الأعظم ، أن حطم الأصنام التي كانت حول الكعبـــة حتى يوم الفتح ، وأرسل البعوث

والسرايا ، لتحطيم أصنام القبائل في البادية، حتى لا يعبد بعد ذلك في الجزيرة، إلا الله وحده لا شريك له .

ومن ذلك يبـــدو أن موقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، من الأصنام ، لم يكن موقفاً عاماً من الفنون التشكيلية ، وإنما موقف حرب لآلهة مزيفة أشركت فيا ما لا تملك ، ولا تستطيع للضر عن نفسها دفعاً فكيف تدفعه عن الخلق . لكننا رغم ذلك : نرى لفقهاء المسلمين رأياً آخر .

لاننا إذا رجعنا لكلام الفقهاء ، في شأن الصور والتماثيل ، فاننا نجدهم على الجملة أقرب إلى التشدد في التحريم منهم إلى الإباحة ولكنهم يتفاوتون في هذا التشدد .

فمثلا نرى النووي – من كبـــار فقهاء الشافعية في القرن السابع الهجري يذهب في التحريم إلى أبعد مدى « ص ٨١ ، ٨٢ – ج ١٤ » من صحيح مسلم فيقول: – « قال أصحابنا وغيرهم من العلماء:تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم – وهو من الكبـــائر – لانه متوعد عليه بالوعيد الشديد المذكور في الاحاديث ، وسواء صنعه بمـــا يمتهن أو بغيره فصنعته حرام بكل حال ، لان فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان من ذلك في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو اناء أو حائط أو غيرها [1] .

وأما تصوير صورة الشجر ، ورجال الابل ، وغير ذلك مما ليس فيه صورة الحيوان ، فليس بحرام ، هذا حكم نفس التصوير .

وأما اتخاذ مـــا فيه صورة الحيوان ، فإن كان معلقاً على حائط أو ثوب

---

(١) هذه الاحاطـــة بكل انواع الصور تدل على انتشارها الشديد في عصره – السابـــع الهجري – الثالث عشر الميلادي .

ملبوساً أو عمامة ، أو نحو ذلك مما لا يعد ممتهناً ، فهو حرام وان كان في بساط يداس أو مخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام ، ولكن هل يمنع دخول ملائكة الرحمة ذلك البيت ؟ وسيأتي بيانه – قال : ولا فرق في ذلك كله بين ما له ظل وما لا ظل له

قال : هذا تلخيص مذهبنا في المسألة ، وبمعناه قالت جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ، وهو مذهب الثوري ، ومالك وأبي حنيفة وغيرهم .

وقال بعض السلف : انما ينهي عما كان له ظل ، ولا بأس بالصور التي ليس لها ظل – وهذا مذهب باطل – فان الستر الذي أنكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصور فيه ، لا يشك أحد في أنه مذموم ، وليس لصورته ظل ، مع باقي الأحاديث المطلقة في كل صورة .

وقال الزهري – من كبار التابعين ورواة الحديث – النهي في الصورة على العموم وكذلك استعمال ما هي فيه ، ودخول البيت الذي هي فيه ، سواء كانت رقماً في ثوب أو غير رقم وسواء كانت في حائط أو ثوب أو بساط ممتهن أو غير ممتهن ، عملاً بظاهر الأحاديث ، لا سيما حديث النمرقة الذي ذكره مسلم ، وهذا مذهب قوي » ا هـ – كلام النووي –

وهكذا نرى النووي يتشدد هذا التشدد في حكم تصوير الحيوان ، سواء كان رقماً في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غير ذلك .

وكأنه قد فهم أن التحريم موجه إلى كل فن تصويري مهما كان ، لا إلى صناعة الصنم أو الوثن من أجل العبادة .

ولو أخذنا برأي الامام النووي لما جاز لأي فنان أن يرسم أي نوع من أنواع الحيوان أو الإنسان في غرض من أغراض الحياة .

ونراه يعني بتوصيح موقف الملائكة « ملائكة الرحمة » من دخول البيت الذي فيه تصاوير أو عدم دخولهم ، فيأبى أن يفرق بين مـــاله ظل – وهو التماثيل ونحوها – وما لا ظل له كالصور والرسوم ، ويسلك ذلك كله في سلك المنع والتحريم .

ويأبى أن يقبل مـــا رواه عن بعض السلف من التفرقة بين ما له ظل ومـــا لا ظل له فيحكم ببطلانه ، ويعارضه برواية أخرى يحكم بقوتها .

ونرى من الفقهاء من يتوسع ويترخص شيئاً ما ، كالقاضي عياض من المالكية الذي يقرر : –

جواز اتخاذ لعب البنات – العرائس التي تتخذها البنات لعباً « مثل عرائس الحلوى ، أو الجبس ، أو القطن ، ونحوه » استناداً إلى ما ورد من أنَ عائشة عندما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كانت صغيرة ، وكانت لها لعب صغيرة من هذا النوع ، وكان لها صواحب يلعبن معها .

ويعلق الامام القرطبي على ذلك بقوله : « قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن » .

كما يذكر القرطبي أن : بعض العلماء يذهب إلى جواز التماثيل عامة ، فضلاً عن الصور والرسوم ، استناداً إلى مـــا جاء في قوله تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. »

(آية / ١٣ – من سورة سبأ)

وقالوا : إن التمثال هو كل ما صور على صورة حيوان أو انسان « وقالوا : كان لسليمان أنواع من التماثيل من زجاج ونحاس ورخام ، وأن بعضها كان يمثل صورة أنبياء تقدموا أو علماء أو صلحاء ، وبعضها كان يمثل حيوانات أخرى ،

كما يروون أنه كان يجلس على كرسي يقوم على أسدين من أسفله ونسرين من فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد اطاف النسران أجنحتهما ، أي أنها لم تكن مجرد تماثيـــل ساكنة ولكنها كانت تماثيل ذات حركات معينة » .

ولم يذكر الامام القرطبي – وهو مفسر معاصر للنووي ولد وعاش باسبانيا ثم هاجر إلى مصر وتوفي بها ٦٧١ هـ .

(لم يذكر شخصيات هؤلاء العلماء – ص ٢٧٥ ج ١٤ تفسير القرطبي) .

وهذا الرأي حكاه مكي في الهداية [١] ، وذكره النحاس قبله [٢] .

وكما استدلوا لذلك بفعل سليمان ، استدلوا له أيضاً بفعل المسيح عليه السلام، الذي حكاه عنه القرآن في قوله تعالى « اني أخلق لكم من الطين كهيئـة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله » (آية / ٤٩ من سورة آل عمران) .

كل هذه الآراء رواها الامام القرطبي في تفسيره .

والواقع : أن لكل فقيه أو عالم من هؤلاء وجهة نظر فيما ذهب إليه ، وهم في ذلك يتبادلون طائفة من الأحاديث النبوية ويستندون اليها .

وسبيلنا : في مثل هذا الخلاف أن نرده إلى الله ورسوله ، عملاً بقوله تعالى « فإن تنــازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم

---

(١) مكي بن ابى طالب حموش بن محمد بن مختار – مغربي.- قارىء مفسر نحوي ولده ٣٥٥ هـ وتوفي ٤٣٧ هـ .

(٢) ابو جعفر احمد بن محمد اسماعيل بن يونس – المرادي المصري توفي ٣٣٨ هـ تحت مقياس النيل – غريقاً – المقري ج ٦ ص ٤١ .

الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً » (آية / ٥٩ من سورة النساء) .

وإذا استعرضنا مـــا ورد من ذلك في الكتاب الكريم ، والسنة الشريفة وجدنا الأمر يأخذ مأخذاً مختلفاً .

أما كتاب الله الكريم – فليس فيـه دليل أو شبه دليل على منع التصاوير أو التماثيل هذا عدا ما سبق أن ذكرناه في شأن الاصنام والأوثان ، وما شابهه ، وقد فسر بعض الناس « الأنصاب » في قوله تعالى « إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » .

(آية / ٩٠ – من سورة المائدة)

بأنها الأوثان ، ومع أن هذا التفسير ليس هـو أوضح الآراء وأظهرها في تفسير « الأنصاب » ، بل أظهرها انها الاحجار التي كانت تنصب وتذبح عليها القرابين فان أحداً لاينازع في أن اتخاذ الأوثان وصناعتها تروج للوثنية والشرك وهو أمر محرم اجماعاً .

فليكن هذا النوع من التماثيل محرماً ، ولكن لا يصح أن نطلق معه القول بالتحريم لجميع التماثيل حتى التي لم يقصد بهـــا ولا يفهم منها أي معنى من معاني الوثنية ، وما ورد في سورة سبأ ، أخباراً عن سليمان عليه السلام ، وما يسره الله له في قوله عز وجل : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكراً وقليـــل مَن عبادي الشكور » .

وقد سبق ان ذكرنا أن هناك فريقاً من العلماء ، يرى اباحة التصوير بجميع أنواعه مجسماً أو غير مجسم استناداً إلى هذه الآية ، والذين يمنعون ويحرمون يستندون إلى أن حكم الاباحة انمـــا هو في شريعة غير شريعتنا ، وقد حرمت الصور والتماثيل في شريعتنا .

والواقع أن المسألة لا يمكن أن تمر بهذه السهولة ، بينما نحن نرى سياق الآية الكريمة يمجد نعم الله تعـالى على سليمان – ، وتعديد مظاهر الحضارة والرقي الصناعي في عهده ، إذ تذكر المحاريب والتماثيل والجفان والقدور ، كما ذكرت من قبل تسخير الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وكما ذكرت من قبل نعم الله على داوود – أبي سليمان – من إلانة الحديد له ، واسالة عين القطر ، وتأويب الجبال معه والطير ... الخ ، وقـد ختم ذلك كله بقوله عز وجل : « اعملوا آل داوود شكراً ، وقليل من عبـادي الشكور » فاعتبر أن هذا كله نعم تستحق الشكر ، وطلب أن يكون هذا الشكر اعمالاً ايجابية فلم يقل: اشكروا يا آل داوود ، ولكن قال : .. إعملوا آل داوود شكراً ، ويبعد أن يباح لنبي من الأنبياء شيء ، ويمجد هذا التمجيد ، ويعـد نعمة تستحق الشكر العملي ، ثم يقال ان هذا مما نسخته شريعة الإسلام، لأن شريعة الإسلام ما جاءت لتنسخ مثل هذا ، وانما تمنع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وليس هذا من قبيل الإصر والأغلال ، وإنما هو من قبيل الرقي الصناعي والفني .

والخلاصة أن هذه الآية أجدر بأن تدل على الإباحة لا على التحريم ، ولعل هذا ما رآه علماء الاندلس ، فافتوا الخلفاء هناك بحله ، كما سبق ان ذكرنا من رأي مكي ، حتى جعـلوا صور الحيوان والطير صنابير للمياه في نوافير القصور الخليفية ، وحتى رأينا الامام المنذر بن سعيد البلوطي[1] ، يخلع ثيابه – ما عدا سرواله – وينزل في يوم صائف إلى بعض هذه النوافير ليبترد في حضرة الخليفة الحكم [2] .

وشبيه بتلك الآية ، ما ورد في الكتاب العزيز ، حكايـة عن عيسى عليه السلام :

---

(١) إمام الجماعة في قرطبة وعالمها وفقيهها الذي لم يكن يخاف في الله لوماً توفي ٣٥٥ هـ .
(٢) المقري «نفح الطيب » ج ٦ ص ٤٥ .

« أني أخلق لكم من الطين . . .الخ » فهذا الرسول الكريم ، استباح — باذن ربه — أن يخلق — أي يصنع — تمثالاً كهيئة الطير ، ولو كان ذلك قبيحاً من البشر ، لما أذن الله ان يفعله رسول من رسله ، ولا يقال إن هذا إنما هو مقام المعجزة في شأن عيسى عليه السلام ، لاننا نقول : ان المعجزة ليست في صنعته مكوناً على هيئة الطير ، ولكن في النفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

ومن يتأمل أسلوب القرآن الكريم في اثبات وجود الله وعظمته ، يجد ان هذا الاسلوب يعين على لفت الانظار الى ما خلق الله من شيء في السموات والأرض ، الى دقة الصنعة التي تتجلى في النبات ، وتتجلى في الحيوان ، وتتجلى في الجماد .

فالله تعالى يقول : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ويقول: « قل سيروا في الأرض ثم انظروا » .

فكيف يطلب من الناس النظر والتدبر ومشاهدة العجائب من خلقه وصنع الله الذي أتقن كل شيء ، للوصول إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته ثم يمنع المصور أن يصور هذه الأشياء ، أو الرسام أن يرسمها أو النحات أن ينحتها أو يمثلها ، أليس ذلك كله تمجيداً لصنعة الله وإعراباً عن جمالها ودقتها بريشة الفنان أو آلة المثال ، وهل يختلف ذلك عن تصوير عجائب خلق الله بالشعر والنثر ، اللذين هما أيضاً من الفنون ، إن هذا وذاك ما هو إلا مخاطبة للعاطفة عن طريق ما يسمع إذا ما قلت شعراً أو نثراً ، وعن طريق ما ينقش إذا ما رسمت أو صورت ، وعن طريق النظر إذا ما سرت في الأرض وتأملت .

هذا شأن القرآن الكريم وما جاء فيه ، وما قيل حوله، وهو المصدر الأول للحل والحرمة في شريعة سيد المرسلين .

* * *

اما السنة الكريمة ، وهي التي إعتمد عليها فقهاء التحريم في أقوالهم ، وهل كان ما جاء فيها مرفوعاً الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، موقفاً مباشراً من الرسول أو غير مباشر من الفنون التشكيلية ..؟؟

فمن ذلك :

١ - ما روي عن عائشة - رضي الله تعالى عنها : « أنها نصبت ستراً ، وفيه تصاوير فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزعه .

قالت : فقطعتها وسادتين فكان يرتفق عليهما - منفق عليه - وفي لفظ أحمد : مرفقتين ، فلقد رأيته متكئاً على إحداهما وفيها صورة .

وفي هذا الحديث تذكر كلمة « تصاوير » فهل يتحتم ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كرهه ونزعه لمجرد أن فيه تصاوير ؟

اننا لا نستطيع ان نقرر ذلك لأن الحديث نفسه يذكر أن احدى المرفقتين قد بقيت فيها صورة ، وانه صلى الله عليه وآله وسلم قد اتكأ عليها ، مع بقاء هذه الصورة ، فلو كانت الكراهية والنزع موجهة ضد التصوير والصورة لكان الحكم بالتحريم أقرب .

ولو كان النص دالاً على أن الستر حين قطع ازيلت الصورة أو فسد وضعها كصورة ، لكان الأمر مقبولاً ، ولكن الصورة بقيت والرسول صلى الله عليه وآله وسلم اتكأ عليها ، فلا بد أن نلتمس سراً آخر لانتزاع الرسول للستر ، ولتقطيع عائشة إياه وسادتين .

وذلك السر في نظرنا هو كراهية النبي صلى الله عليه وآله وسلم للترفه ، واتجاهه لأن يكون بيته خالياً من وسائل الزينة والنعيم وليس ذلك لان الزينة والنعيم والمستوى الرفيع في اتخاذ الستور والبسط وما اليها محرم على المؤمنين ، وانما هو لموضع القدوة في حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فالأولى ألا يفعل ذلك .

وهذا الذي نقرره تدل عليه رواية أخرى :

فقد روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :حولي هذا ، فاني كلما دخلت فرأيته تذكرت الدنيا ..

وفي رواية أخرى عنها : انه كان لها ثوب فيه تصاوير، ممدودة الى سهوة — والسهوة بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً يشبه المخدع — فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إليه — أي انه كان تجاهه هو يصلي مستقبلاً القبلة — فقال : أخريه عني ، قالت : فأخرته فجعلته وسادتين » .

قال الإمام القرطبي معلقاً على ذلك « قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعاً ، لأن محل النبوة والرسالة الكمال فتأمله » اهـ كلام القرطبي — ص ٢٧٤ ج ١٤ من التفسير .

بذلك يتبين أن السر الذي دعا رسول الله صلى عليه وآله وسلم، إلى كراهية الستر في الحديث الذي نتحدث عنه ، وفي طلب تأخير ستر آخر عنه كان منصوباً في مكان واضح في مدخل البيت ، يستقبله المستقبل ، أو في مكان يتجه اليه رسول الله حين يصلي ، كما ذكرت الروايتان الأخريان .

كل هذا يؤذن بأن السر هو كراهيته الدنيا ، والترفع عنها وعن متاعها وما يشغل القلب منها ورعا وكمالا ، فليس له صلة بالصورة أو الصور التي في هذا الستر أو ذاك .

٢ — عن أبي هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أتاني جبريل فقال : إني كنت أتيتك الليلة ، فلم يمنعني أن أدخل البيت الذي أنت فيه ، إلا أنه كان فيه تمثال رجل ، وكان في البيت قوام ستر فيه تماثيل ،

وكان في البيت كلب ، فمر برأس التمثال الذي في البـــاب يقطع يصير كهيئة الشجرة ، وأمر بالستر يقطع فيجعل وسادتين منتبذتين توطآن ، وأمر بالكلب يخرج » . ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا بالكلب جرو، وكان للحسن والحسين تحت نضدهما .

رواه احمد وأبو داوود ، والترمذي ، وصححه وأخرجه النسائي وكل مـــا ذكر في هذا الحديث ، ان جبريل عليه السلام ، امتنع عن دخول البيت وفيه هذه الأشياء ، فلقائل ان يقول : هل كان امتناعه كراهية للصور والتماثيــــل والكلب ، أو كان لما يدل عليه ذلك من اتجاه الى اتخاذ هذه الأشياء ، وما لها من دلالة على التأنق والترفه واللهو ، بينما يراد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون بعيداً عن كل ما يجعله كالرؤساء الذين يقصدون الى الفخامة والعلو ...

نعم إن في الحديث تصريحاً بأن جبريل أمره بأن يقطع رأس التمثال ، وان يقطع الستر فيحوله الى وسادتين ، وان يخرج الكلب ، ولكن ذلك في رأينـــا لا يقصد به إلا إلى ابطـــال اتخاذ هذه الأشياء على الوضع الذي اتخذت عليـــه ، ترفيعاً لمقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، عن مظاهر العلو المصطنعة على سنة الكبراء والرؤساء من أهل الدنيا ، ولا شك أن هناك فرقاً بين اتخاذ مستر فيه تصاوير ، وتحويل هذا الستر الى وسادتين ينتفع بهما ، وتبطل معهما الدلالة على التزيد والتمتع ، كما أن قيام التمثال يؤذن بلون من ألوان التأنق والتكبر والزينة ، وكذلك اقتناء الكلب الصغير بدون حاجة إليه إلا لمجرد اللعب به واللهو .

ولذلك فان اتخاذ الكلب للحراسة ونحوها جائز ولا بأس به.

٣ – عن ابن عباس « وجاء رجل فقال : اني أصور هذه التصاوير فافتني فيها ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : كل مصور في

النار يجعل له بكل صورة صورها نفساً تعذبه في جهنم ، فان كنت لا بد فاعلا فاجعل الشجر وما لا نفس له ».

متفق عليه

هذا الحديث هو الذي استند اليه من فرق بين تصوير الحيوان ، وتصوير الشجر ونحوه ، وأشد ما فيه ما رواه سماعاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: « كل مصور في النار» ... الخ ومثله ما روي عن أبي عمر: ان رسول الله ﷺ قال : « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم احيوا مـا خلقتم .

متفق عليه

وما روي من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من صور صورة عذبه الله يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وما هو بنافخ » .

رواه البخاري والترمذي والنسائي عن ابن عباس .

ونلاحظ على هذه الأحاديث ما يلي :

أ ــ ان كلا من حديث ابن عباس وحديث ابن عمر يقول ما يفهم عنه أن الكلام في صورة معينة ، إذ يقول الرجل الذي سأل ابن عبـاس : « اني اصور هذه التصاوير فافتني فيها » .

ويقول ابن عمر نقلا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« الذين يصنعون هذه الصور » .

واذن ... فهي صور معينة جرى عليها القول ، وانصب عليهـا الحـكم من الجائز ان تكون صوراً لها دلالة دينية مخالفة لما عليه المسلمون ، كالأصنام التي تعبد من دون الله .

وقد يدل على ذلك ما ورد في حديث مسلم وغيره : « ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم هتك درنوكا لعائشة كان فيه صور الخيل ذوات الأجنحة، حتى اتخذت منه وسادتين ».

والدرنوك نوع من النسيج ذو وبر كالقطيفة ، كان يرسم عليـــه في صناعة النسيج، فهذا الحديث الأخير يتحدث عن نوع معين من الصور، هو الخيل ذوات الأجنحة، ومن المعروف أن العادة جرت بتصوير الملائكة ذوي اجنحة، أخذا مما ورد في الكتب الدينية من وصفها ، كما في قوله تعالى : « أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ».

آية / ١ – من سورة فاطر

فالمتبادر أن صور الخيل لها أجنحة ربما تلتقي بتصوير الملائكة واجنحتها فكأن النبي صلى الله عليـه وآله وسلم ، كره الاقتحام على الملائكة ، ولو من بعيد فلم يرض عن هذا النوع من الصور .

وبذلك يمكننا أن نقول ان تصوير من له قداسة من مَلَك او نبي أو نحـو ذلك ينبغي الا ينظر اليه بارتياح .

ب – ان هذه الأحاديث قد تحدثت عن المصورين أو عن التصوير عامة وأن بعضها يشير الى تخصيص التحريم بما كان ذا روح ، وبعضها يستثني ما كان رقماً في ثوب ونحوه ، وبذلك يتردد معناها بين التعميم والتخصيص ، وبـين التماثيل المجسمة والصور والرسوم المرقومة .

وهذا ما دعا بعض العلماء الى الخروج من تضارب الأقوال فيها بتأويلهـا ، ومن أهم ما رأينا في ذلك : رأي أبي علي الفارسي[١]، فهو يقرر أن القدر المتفق

---

(١) الحسن بن علي بن احمد بن عبد الغفار – قارىء مفسر نحوي ولد ٢٨٨ﻫ وتوفي ٣٧٧ ﻫ.

عليه في هذه الأحاديث وأمثالها ، هو الحكم بتعذيب المصور ، ووراء هـــذا القدر المتفق عليه روايات أخرى آحادية لا تفيد القطع ، تضيف إلى هذا القدر المشترك شيئاً آخر هو أنه « يقال لهم أحيوا ما خلقتم » .

فاذا قطعنا النظر عن هذه الزيادات ، ولم يبق معنا إلا الأخبــار بتعذيب المصورين في مثل قوله : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » هنا يقول ابو علي الفارسي : « إن المراد بالمصورين الذين يكونون أشد الناس عذاباً يوم القيامة هم فرقة المجسمة التي ترى أن الله تعالى جسم ، ويشبهونه بما خلق ، هؤلاء قد خالفوا صريح القرآن في مثل قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » آية/١١ من سورة الشورى « ولم يكن له كفوا أحد » .

سورة الاخلاص

فاستحقوا اشد العذاب لانهم افتروا على الله تعالى في أمر من أمور العقيدة ، بل هو أهم عقيدة من العقائد التي جاءت بها الأديان لاتصالها بذات الله جل علاه ، لذلك يكون مفهوماً انهم مستحقون أشد العذاب تبعاً لعظيم جريمتهم وشناعتها.

ولا يعقل أن يكون مجرد تصوير صورة مجسمة أو مرقومــة سبباً في نظر الشارع لاستحقاق أشد العذاب بهذا الاطلاق .

فأين هذا من جريمة قتل النفس التي حرم الله قتلها ، او جريمــة الزنا مثلاً ، أو غير ذلك من الجرائم العظمى ، ويجدر بنا أن ننقل كلام أبي علي نفسه بعد أن قدمنا له بهذه المقدمة .

قال أبو علي الفارسي في كتابه الحجة[1] .

« فأما قوله تعالى : « ثم اتخـــذوا العجل » وقوله « باتخاذكم العجل »

---

(١) ص ٣٥٦ ج ١ من المخطوط المصور بدار الكتب تحت رقم ٤٦٣ .

و « اتخذوه وكانوا ظالمين » « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً » ، فالتقدير في ذلك كله : اتخذوه إلهاً ، فحذف المفعول الثاني » .

والدليل على ذلك ان الكلام لا يخلو أن يكون على ظاهرة ، دون إرادة المفعول الثاني ، لقوله عز وجل : « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا » .

ومن صاغ عجلا أو نجره أو عمله بضرب من الأعمال ، لم يستحق الغضب من الله عز وجل ، والوعيد عند المسلمين ، فاذا كان كذلك ، علم أنه على ما وصفنا من إرادة المفعول الثاني المحذوف في هذه الآي .

فان قال قائل : قد جاء في الحديث : « يعذب المصورون يوم القيامة » وفي بعض الحديث : « ويقال لهم : أحيوا ما خلقتم » . قيل : يعذب المصورون يكون على من صور الله تصوير الأجسام ، واما الزيادة فمن أخبار الآحاد التي لا توجب العلم ، فلا يقدح بذلك في الاجماع على ما ذكرنا » .

الى هنا ينتهي نص كلام أبي علي ، ومما يلفت النظر ويسترعي الانتباه : انه يقرر جواز صياغة العجل أو نجره .. الى آخره « تقرير المسلمات ، وان هذا الفعل لا يمكن أن يكون بذاته سبباً لاستحقاق غضب الله .

وهكذا نرى ان استنباط التحريم من الأحاديث ليس ضربة لازب كما يرى المتشددون وأن الأمر لا يعدو ان يكون فهما فيما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لنا ان نعارضه بفهم آخر فهمه جمع آخر من العلماء ، الذين عاصروا أو سبقوا من قال بالتشديد والتحريم .

وكلهم ينسب رأيه الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والحق انه فهم لهم .

ولا شك أن هذا رأي خطير يدلي به عالم في شأن التصوير ، عالم عظيم في القرن الرابع الهجري ، ويهيء السبيل إلى من لم يطمئن إلى حكم التحريم ، أن يؤول أحاديث تعذيب المصورين بمثل ما أولها به أبو علي .

* * *

أما الفنون السمعية ،

فكان لها شأن آخر ، ولا حاجة بنا إلى أن نبدأ الحديث عن إباحتها أو تحريمها برأي الفقهاء ، ثم مناقشته .

لأنهم هنا أقل تشدداً منهم في مقام التصوير ، فهم أقرب للإباحة منهم إلى التشدد والمنع المطلق ، وذلك لأن ما روي عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، واضح في مواقف واضحة ، لا يحتاج إلى تأويل أو تخريج .

١ – فمن ذلك مارواه مسلم عن عائشة ، قالت : دخل على ابو بكر – والدها – وعندي جاريتان من جواري الأنصار ، تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث ، قالت : وليستا بمغنيتين ، فقال أبو بكر : بمزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك في يوم عيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا بكر « ان لكل قوم عيداً وهذا عيدنا » .

وفي رواية البخاري عن عروة : ان عائشة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش ، وحول وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : دعهما . وفي بعض الروايات : تضربان بالدف » ا. هـ متفق عليهما مع اختلاف في اللفظ .

وهكذا نرى حديثاً واحداً بروايتين ، منه نتبين أن تلك الواقعة كانت في أيام منى بعد يوم النحر ، من أيام عيد الأضحى ، وان الجاريتين كانتا نغنيان ، وليس الغناء بحرفة لهما ، وذلك على سبيل الترويح مما تفعله البنات في البيوت ، كما ذكرت بعض الروايات أنهما كانتا تصاحبان غناءهما بدق على الدف .

وان النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وسلم كان حاضراً أو دخل وهما تغنيان ولم يعترض ، وإنما استدار بوجهه إلى الجدار ونام ، وأن أبا بكر لما دخل وسمع ذلك توهم أنه من الغناء الممنوع ، فنهر ابنته عائشة — زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مستنكراً ذلك بقوله : « مزمار الشيطان عند رسول الله » .

وقد بادر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فصحح فهم أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، ونبهه الى أن هذا الغناء مما يسمح به لاظهار الفرح بيوم العيد .

٢ — روى البخاري رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها : « أنها زفت امرأة الى رجل من الأنصار، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يا عائشة : « ما كان معكم لهو ، فإن الأنصار يعجبهم اللهو » .

وشبه به ما رواه النسائي رحمه الله تعالى عن جابر رضي الله تعالى عنه قال : « أنكحت عائشة رضي الله تعالى عنها ذات قرابة لها، رجلاً من الانصار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أهديتم الفتاة ؟؟ ألا بعثتم معها من يقول : أتيناكم أتيناكم .. فحيانا وحياكم » .

وظاهر أن هذين خبران تعلقا بحادثه واحدة ، هي زواج إحدى قريبات عائشة برجل من الأنصار .

ومنها نتبين دعوة النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، الى استحباب اللهو في مثل هذه المناسبة ، واللهو الذي أراده توضحه الرواية التي ذكرت

الأغنية ، وهي فيما يبدو كانت من أغاني الزفاف التي اشتهرت وانتشرت .

كما أن مناسبة العرس مما يستحب الاعلان عن حدوثه بمثل هذا الاحتفال أو اللهو كما عبر عن ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

وإذا كانت عائشة رضي الله عنها ، تذكر في الحادثة الأولى : أن الجاريتين ليستا بمغنيتين ، فإن الحادثة الثانية – حسب ما جاء في بعض الروايات فيها ذكر « قينتين » أي مغنيتين .

فالغناء والضرب بالدف لهو في يوم العيد مباح ، والغناء في الزواج ليس مباحاً بل مستحب ، دعا إليه رسول الله صلى الله علية وآله وسلم .

ولعل هذا الاستحباب لم يكن أمره معروفا وشائعاً ، وذلك لما رواه النسائي رحمه الله تعالى : عن عامر بن سعيد ، « قال : دخلت على قرظة بن كعب ، وأبي مسعود الأنصاري في عرس ، وإذا جواري يتغنين ، فقلت : أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بدر، يُفعل هذا عندكم..؟؟

قال : إجلس فإن شئت فاستمع معنا، وإن شئت فاذهب ، فأنا قد أرخص لنا في اللهو عند العرس » .

ومن الروايات والأخبار السالفة نرى الإباحة والاستحبات أمران ظاهران وإن لم يكن العلم بهما قد اشتهر، غير أن القدر الذي يستباح في مثل هذا اللهو، ظاهر أنه لم يتضمن كلاماً خارجاً، أو لفظاً جارحاً، أو معنى من معاني الإثارة ، لأن غناء يوم بعاث – الذي كانت الجاريتان ترددانه عند عائشة ، في حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – انما كان من الحماسيات التي كانت الهمم تستثار به عند الحروب، وذلك مما يقرب من الأغاني الحماسية في عصرنا الحاضر.

كما أن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم»

« كلام رتيب يتضمن تحية أهل العرس ، عدا ما فيه من تعداد مناقب التفاف الناس بالزواج .

٣ – ذكرت كتب السيرة أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، استقبل يوم قدومه المدينة مهاجراً بالنشيد :

طلع البدر علينـــا   من ثنيـــات الوداع
أيهـــا المبعوث فينا   جئت بالأمر المطـاع

. . . .

ولم يجزع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لسماعه هذا النشيد ، ولم يعرف عنه أنه أمر أحداً بمنع ذلك .

كما روت كتب السيرة والحديث أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يرتجز هو وأصحابه يوم الخندق أثناء الحفر :

لا هم لولا أنت ما اهتدينـــا
فأنزلن سكينـــة علينـــا
وثبت الأقدام إن لاقينـــا

لا هم ان الفضل فضل الآخرة   فاغفر للأنصار والمهـــاجرة

وأغلب الظن أن ذلك الرجز لم يكن يردد عارياً عن الحماسة والتطريب ، بل كان في أصواتهم ترجيع وتأديب ، وذلك مما يزيد من همة المجاهد وحماسه ، ويرفع من روحه ومجاهدته .

وقريب من ذلك ما كان المتبارزون في الحرب ـ قبل المعارك ـ يرتجزونه عند المبارزة ، تفاخراً على العدو بقوة البأس وشدة المراس على القتال .

وقد فعل ذلك علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، تحت سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، يوم بدر حين انتدب لمبارزة فارس من فرسان المشركين .

٤ ـ وكانت للعرب أصوات وكلمات تصاحب سير القوافل في الفلوات يرددها الحادي مبددة وحشة البيداء ، وترددها معهم صدى وتأديباً شوامخ الجبال الصماء ، وتطرب الإبل نفسها لهذا الحداء حتى أن خطوها ليكتسب سرعة اللحن وبطأه .

وسافر النبي صلى الله عليه وسلم ورحل غازياً ، سفراً طويلاً أو قصيراً وما عرف عنه أنه نهر الحادي أو ضاق بحدائه .

* * *

هكذا نرى أن الأعياد والعرس ، وأناشيد الحماس جماعية وفردية وأصوات التسلي على العمل والجهد ، قد دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى بعضه ، وشارك في بعضه ، حين كان اللفظ عفياً بريئاً ، والصوت خفيفاً لطيفاً لا عوج فيه ولا تخنث ، ولا إثارة لشهوة ، أو دعوة الى مجون .

ولذلك كانت آراء العلماء والفقهاء ملتزمة لذلك ، فيقول الإمام النووي ـ صاحب الرأي المتشدد في الصور والمصورين : ـ

« اختلف العلماء في الغناء ، فأباحه جماعة من أهل الحجاز وهي رواية عن مالك ، وحرمه ابو حنيفة وأهل العراق ، ومذهب الشافعي الكراهة ، وهو المشهور عن مالك . . .

ثم يقول: « والغناء المختلف فيه إنما هو عادة المغنيات من التشويق والهوى ، والتعريض بالفواحش .... الخ مما يحرك النفوس ويبعث الهوى والغزل .

« والعرب تسمي الإنشاد غناء ، وقد استجازت الصحابة غناء العرب ، الذي هو مجرد الإنشاد والترنم ، وأجازوا الحداء وفعلوه بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم » .

ويختتم الإمام النووي كلامه بهذه العبارة « وفي هذا كله إباحة مثل هذا وما في معناه ، وهذا مثله ليس بحرام ولا يحرج الشاهد »[1] ا. هـ .

* * *

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتجز يوم حنين .

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وذلك عندما اشتد الروع ، وكاد المسلمون أن يفتنوا رغم كثرتهم فجمع صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكماة حوله ، وشق بهم الصفوف واخترق بجمعهم الكتائب ، يحتمون به عند الروع ، حتى أفاء الله عليهم بالنصر .
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

---

(١) صحيح مسلم ج ٦ ص ١٨٣ وما بعدها .



محمد والشعر

بقلم الدكتور
جودة عبد الله مصطفى

الشعر من الفنون الجميلة التي يعبر بها الانسان عن نفسه وعن بيئته، ويسكب فيها مشاعره وعواطفه ، ويتخفف بواسطتهـــا مما يحسه ومما يثقله . والشعر – شأنه شأن كل فن تعبيري – يرتبط بالإنسان في رقيه وانحطاطه ، في قوته وضعفه في التزامه بالقيم والمبادىء وفي تحلله ومنهـــا ، ولذا رأيناه على مدى التاريخ تنتابه عوامل الضعف والقوة ، وتشده الدواعي المختلفـــة والمؤثرات المتباينة ، سواء أكانت من داخل الشاعر أم من خارجه ، من البيئة المحيطة به، ولهذا نجده – أحياناً في خدمة المجتمع وفي سبيل الحيـــاة الحرة الكريمة ، ملتزماً بقضايا الإنسان وبالقيم الشريفة السامية ، ونجده – أحياناً أخرى – في خدمة السادة المستبدين والمتسلطين يشيد بهم ويروج بضاعتهم، ويبرر تصرفاتهم فهو – اذن – مسخر لخدمة قوى الشر والبغي، يتبنى القيم الزائفة ويرتكس في الهوان ، ويصد عن القيم الشريفة الخلاقة التي تصنع الحياة ، ولهذا نراه مدحاً كاذباً ، ودفاعاً خادعاً . وأحياناً ثالثة نجد الشعر تعبيراً عن مشاعر الانسان الذاتية الخالصة ، بعيداً عن المؤثرات الخارجية من سلطان السياسة والبيئة ، ونقصد به ذلك السلطان الواضح والمتحكم ، فهو – حينئذ – غناء الإنسان

آماله وآلامه ، أفراحه وأحزانه . والشاعر في هذه الحـــال كالبلبل الطليق يتغنى حراً بعيداً عن أقفاص السلطة وسلطان المجتمع ، يتغنى بما يعتمل في نفسه ويضطرم في قلبه من عواطف ومشاعر ، سواء أكانت مفرحة أم محزنة بغض النظر عمـــا يهم المجتمع . وقد يعف هذا اللون من الشعر فيكون تعبيراً عن إحساسات الشاعر في حالات قوته وضعفه، عن لهوه البريء، عن حبه وبغضه ، فنجده غزلاً عفيفاً ، أو عتاباً رقيقاً ، أو شكوى مريرة ، أو رثاء حزيناً . كما نجده تعبيراً عن الاعجاب بما هو جميل أو التنفير مما هو قبيح . وقد ينغمس في الغواية ، وتستعبد الشاعر الشهوات فيكون الشعر تلهياً محضاً ، وحرباً على الفضائل ، وإشادة بالرذائل ، فالشاعر لا يجد القدرة واللذة إلا في التعبير عن مغامراته في الغواية، وعن تجاربه التي حاول فيها إشباع غرائزه وإمتاع شهواته متبنياً الانحرافات الخلقية والنفسية فيسمعنا ألوان الغزل الذي يخدش الحياء ، ويصور كيف يجري وراء النساء وماذا يصنع معهن ، ويشيد بالخمر ومجالها ، محبذاً الخروج على التقاليد والقيم الأخلاقية الراسخة .

ومن هنا ظهرت المذاهب الأدبية والنقدية التي تعكس وجهات النظر المختلفة نحو الشعر ، فعرفت المذاهب التي تقيد الشعر ، وتريد له أن يكون في خدمـــة الحياة الفاضلة ، وأن يكون ملتزماً بقضايا المجتمع النبيلة ، غير أن بعضها يعفيه من هذه المسؤولية ، ويراه فناً ذاتيـــاً غير ملتزم ، وليس هنا مجال التفصيل في ذلك . كما عرفت مذاهب أخرى تبيح للشاعر حرية القول ، وتفسح له مجـــال التعبير ، ما دام مكتمل الأدوات الفنية .

فماذا كان حال الشعر العربي؟ وماذا كان موقف المجتمع العربي من هذا الشعر قبل مبعث الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ لقد بلـــغ الشعر في شبه الجزيرة العربية ، أيام العصر الجاهلي ، مرتبة رفيعة ، وكذلك بلـغ الشاعر والكتب التي تحمل أخبار الشعر والشعراء غنية بالأحداث والأخبار الدالة على ذلك، فلقد كان الشعر أداة الثقافة والتربية ، ووسيلة الاعلام . وفي الوقت نفسه كان

غناءهم وموسيقاهم والوسيلة الذائعة والغالبة للتعبير الفني الجميل ، فهو فنهم الذي يجمع كل الفنون ، ولهذا كانوا يجتمعون حـــوله في الأسواق والمنتديات . وكان غنـــاءهم في حلهم وترحالهم ، ونشيدهم وموسيقاهم في السلم والحرب . كما كان لسان القبيلة ومتنفس الأفراد. والشعر بالنسبة إليهم – كذلك – الكتاب الذي يجمع ثقافتهم ومحامدهم ، ويحفظ أيامهم ووقائعهم ، والصحيفة التي تنقـــل أخبارهم ، وتذيع فضائلهم ، وتشيد بشجاعتهم . وهو سلاحهم في المعارك وفي الحياة وله دوره الكبير والمؤثر في المجتمع ، فكم رفـع من وضيـع ، وحط من رفيـع . كل هذا بجانب رسالته الفنية التعبيرية أو بسببها .

وإذا كانت تلك منزلة الشعر ووظيفته ، فماذا كان مجــال القول عندهم ؟ نستطيع أن نقول : أن الشعر العربي في العصر الجـــاهلي ، كان منه المعبر عن المجتمع القبلي ، أو الملتزم بقيم القبيلة وقضاياها وهو الغالب ، فكان لسانهـــا الناطق بمحامدها ، والمدافع عن أحسابها وأنسابها ، والمشيد بفضائلها وشجاعة أبنائها في المفاخرات والمنافرات . وكان سلاحاً من أسلحة الصراع القبلي ، فهو المثير لحماسة المحاربين في المعارك ، والراثي القتلى ، والمحرض على الأخذ بالثـــأر والهاجي الأعداء ، فهو في خدمة مجتمع القبيلة يدافع عن قيمه . والشاعر هنا ملتزم من داخله دون إلزام أو قسر ، حتى من الناحية الأدبيـــة ، لأنـــه جزء من تلك القبلية ، وخلية حية في جسدها وأي شرف تناله القبيلة يناله ، وأي ذم يوجه إليها يصيبه في الصميم ، فهو بدفاعه عنها ، وفخره بهـــا يدافع عن نفسه ويفخر ، فليس هناك انفصال بينهما ، وهذا اللون من الشعر منه المحمود والمذموم ، لأنه انتصار للقبيلة بالحق وبالباطل ، ووقوف بجانبها ظالمة أو مظلومة .

وبجانب هذا اللون المعبر عن المجتمع القبلي ، كان يوجد شعر يعـــبر عن التجارب الشخصية والمشاعر الفردية ، لا القبلية . وأحياناً تسمو تلك التجارب وهذه المشاعر ، فيكون شعراً سامياً ، وذلك مثل الشعر الذي يعبر عن بعض التجارب الفاضلة ، التي تعكس حبهم للكرم وحماية الجار . أو الشعر الذي يعبر

عن المشاعر والعواطف الانسانية الراقية كالحزن على أخ أو صديق ، أو المديح على خدمة انسانية عامة كمدح زهير بن أبي سلمى هرم بن سنـــان والحارث بن عوف لتحملهما ديات القتلى بين قبيلتي عبس وذبيان ، وحقنهما بذلك الدماء ، أو كالوصف لمشاق الرحـــلة وهموم الطريق . وأحياناً أخرى تنحرف تلك التجارب . وهذه العواطف ، فيتعكس الشعر مغامرات فاحشة تثـــير الغرائز الدنيا ، وتحض على الشهوات ، وإشباع الجسد بالمرأة أو بالخمر ، ويتمثل ذلك في كثير من شعر امرىء القيس وطرفة . ومن هذا اللون المنحرف الشعر الذي كان يتناول الأعراض والحرمات إذ كان فيـــه فحش القول والتصوير ، وذلك كشعر الهجاء ، سواء أكان شخصياً أم قبلياً . وأحياناً ثالثة تزيف العواطف ، فيتخذ المدح حرفـــة وتصير الفضائل دعوى ، فتختلط القيم وتشترى المحامد . وهذا اللون كان ضيق الرقعة محدودا .

وكان يوجد – بجانب ذلك – نوع من الشعر يدعو الى القيم العليـــا ، وإلى الزهد ، وإلى عبادة الله ، فهو يتلمس طريقه الى الدين الحق ممـــا عرف في شبه الجزيرة من أديان سماوية كبقايا دين ابراهيم ، وكاليهودية والنصرانية ، وذلك كشعر لبيد وامية بن أبي الصلت وعدي بن زيد .

هذه هي ألوان الشعر التي كانت تسود شبه الجزيرة العربيـــة ، حينما ظهر الرسول عليه السلام ، وبعث برسالته الى الناس كافة ، وهذه هي منزلته عندهم وهذا هو دوره . رالشعر – كما رأينا – سلاح خطير في يد القبائل والأفراد ، له السيطرة العليا على النفوس به تقضى الحاجات ، وبالانتساب إليه ترتفع أقدار الرجال فماذا كان منه صلى الله عليه وسلم وقد بعث في أمة تقدر الكلمة وتعرف بفطرتها سرها وسحرها ؟ ويكاد يكون كل أبنائها شعراء ، ومن لم يرزق منهم موهبة الشعر رزق موهبة الفصاحة وحسن البيان ، وجلهم – ان لم يكن كلهم – خبير بفن الكلمة وسحرها ، وكلهم يقدر الشعر والشاعر . ولأنهـم لم يعرفوا خيراً من الشاعر ، ولا أعظم تأثيراً منه ، لم يجدوا من وصف للرسول عليـه

السلام حينما واجههم بدعوته وما أنزل عليه ، سوى وصف الشاعر . والرسول ﷺ خير من يقدر قيمة الكلمة وأهميتها ، وخير من يعرف سرها وسحرها ، وكيف لا وقد أيده الله بمعجزة الإعجاز في البلاغـة ، وهي القرآن الكريم ، ورزقه ملكة البيان والفصاحة كما لم يرزقها غيره ، فقد أوتي جوامع الكلم ، وأدّبه ربه فأحسن تأديبه .

فماذا كان منه صلى الله عليه وسلم حيال الشعر ، وقد بعث في مثل تلك الأمة ؟ ما نظن أن نبينـا الكريم الذي أرسل الى هؤلاء القوم ، ونشأ بينهم يشاركهم حياتهم ، ويسمع شعراءهم وفصحاءهم ، ويكون هو في القمة من الفصاحة والبلاغة ، أن ينكر الشعر إنكاراً تاماً ، أو أن يقف منه موقف البغض.

وقبل أن نتبين ما كان من الرسول عليه السلام تجاه الشعر والشعراء ، نقف مع بعض آيات القرآن الكريم ، التي تتصل بالشعر والشعراء ، وهو الكتاب الذي نزل عليه صلى الله عليـه وسلم فرقانا وتبياناً لكل شيء . ونستطيع أن نقسم تلك الآيات الكريمات الى ثلاثة أقسام : ـ

القسم الأول ويشمل الآيات التي وصف فيهـا الرسول بأنه شاعر في معرض ذكر اتهام الكفار له بذلك . وقد ورد هذا الوصف في ثلاث آيات وهي : الآية (٥) من سورة الأنبياء : « بل قالوا أضغاث أحلام بـل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » والآية (٣٦) من سورة الصافات : « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » والآية (٣٠) من سورة الطور : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » .

وهذه الآيات تنقل لنا اتهام الكفار للرسول عليـه السلام بأنه شاعر بقصد نفي الرسالة عنه ، ففي الآية الأولى يصور الله تخبط المشركين وحيرتهم في اتهام الرسول بصفة تخرجه عن كنف النبوة وتخلع عنـه ثوب الرسالة ، وفي الوقت نفسه ترضي نفوسهم القلقة التي لا ترضى بتلك الصفات التي يطلقونها مدعين ولا

يصدقونها ، فهم بعد أن قرروا في الآية السابقة ان القرآن سحر ، انصرفوا عن هذا الاتهام وقالوا : بل أضغاث أحلام أي تخاليط احلام ، ثم انتقلوا إلى اتهام آخر بأنه كلام مفترى من عنده ، ثم تركوا ذلك الى انه شاعر وان القول قول شاعر ، أي أن القرآن كلام شاعر وليس من عند الله . ويبدو أنهم اطمأنوا الى هذا الاتهام لأنهم سكتوا عنده . وفي الآية الثانية يصف المشركون الرسول عليه السلام : بأنه شاعر ، مجنون وانهم لن يتركوا آلهتهم من أجله . وفي الآية الثالثة يدعون انه شاعر ننتظر به نوائب الزمان ، ونصبر حتى يهلك كما هلك قبله غيره من الشعراء .

والملاحظ في تلك الآيات ان المشركين يصفون الرسول بأنه شاعر ، وبأن القرآن قول شاعر ، وغرضهم من ذلك نفي النبوة عنه والرسالة ، وأن ما يقرؤه فيؤثر في النفوس ليس شرطاً أن يكون من عند الله ، فهو شاعر كغيره من الشعراء .

القسم الثاني وهو الذي يرد فيه الله سبحانه وتعالى ، على المشركين اتهامهم ، وينفي عن الرسول عليه السلام ما أدعوه بأنه شاعر ، وذلك في موطنين : الأول الآية (٩٦) من سورة يسن ، وهي : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » . أي وما علمناه بتعليم القرآن الشعر ، فالقرآن غير الشعر أين المعاني التي يقدمها الشعراء من معانيه واين نظم كلامهم من نظمه ؟ وما يصح للرسول ﷺ الشعر ، ولا يحق له أن يقوله ، وما ينبغي له أن يكون شاعراً ، وان يطلب الشعر ، لانه أرفع وأسمى ، فقد بعث بالهدى ونور الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وما أنزل عليه أعظم قدراً وفائدة ، لأنه ذكر من الله تتعظ به القلوب ، وقرآن يتعبد به ، وهو حق خالص ، ونور يهتدى بهديه بينما الشاعر يقول كلاماً قد يكون فيه بعض الحق ، ولكن يغلب عليه الباطل ، وقد يقف بجانب الخير أو بجانب الشر ، وقد يزاوج بينهما . والشعر

كلام معروف لكم ، ومعانيه معهودة ، فما أنزل عليه يختلف كما تعلمون عنه . والموطن الثاني الآية (٤١) من سورة الحاقة ، وهي « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » أي ما القرآن بقول شاعر كما تدعون ، ألفه صاحبه ، كما يؤلف الشاعر ويلفق ، بل هو قول الله نطق به الرسول الكريم . والغرض من هذا القسم نفي صفة الشعر عن كتاب الله أو أن يكون قول شاعر ، ونفى الشاعرية عن الرسول الكريم ، التي حاول الصاقها به المشركون ليخلعوا عن النبي صفة الرسالة ، وليجردوه منها ، وليس المقصود الزراية بالشعر وبالمتصف به ، ولكن المقصود احقاق الحق ورد التهمة ، فلا يستطيعون التنصل وتلزمهم الحجة ، ولو بينهم وبين أنفسهم .

واذن فنحن أمام موقفين ، أو تهمة والرد عليها ، فالمشركون يصفون الرسول الكريم ، بأنه شاعر وبأن القرآن قول شاعر . ويقصدون من وراء ذلك ، انه لا يوحى اليه بل هو صانع قول ، وصاحب خيال بارع ، ومقدرة بلاغية مؤثرة ، فهو شاعر كغيره من الشعراء ، يؤلف كلاماً مؤثراً ، لا يدل إلا على براعة كلامية وبعد في الخيال ، وذلك في القسم الأول من الآيات . والقرآن الكريم ينفي ذلك موضحاً ان الرسول لا يتحدث عن أمور خيالية ، أو فضول من القول ، أو يتناول الجانب غير الضروري وغير المهم من حياة الناس ، بل هو يتناول البناء الاجتماعي من أساسه ، انه يتناول صميم الحياة لا حواشيها ، وذلك في القسم الثاني .

اما القسم الثالث وهو ما أراد الله سبحانه ان يفرق فيه بين الشعراء والأنبياء ، ويهاجم الشعراء المنحرفين ومن يتبعهم — فقد وردت فيه الآيات الكريمات (٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧) من سورة الشعراء . وهي : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم

الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » . والمعنى – والله أعلم – والشعراء لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم ، وفضول قولهم من الهجاء وتمزيق الأعراض ، والقدح في الأنساب ، والنسيب بالحر ، والغزل الفاحش ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب إلا الغاوون والسفهاء والضالون ، ثم يبين الله الاستدلال على ذلك فيقول : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » يسيرون في كل طريق من طرق القول ، غير مبالين بالغلو في المنطق ، ومجاوزة حد القصد . وقد قال ابن عباس في تفسير ذلك : في كل لغو يخوضون ثم انه ليس أدل على ضلالهم من أنهم يقولون قولاً لا يؤمنون بصدقه ولا يطابق تصرفاتهم ، ولا يتفق مع سلوكهم ، فهم يقولون ما لا يفعلون . وحتى لا يظن ظان ان ذلك الحكم عام شامل ، استثنى الله سبحانه ، من هؤلاء الشعراء الذين تلك صفاتهم ، وتلك صفات من يتبعهم ، الشعراء المؤمنين ، فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » أي الشعراء المؤمنين بالله وبرسوله ، ويقرأون القرآن ، ويذكرون الله كثيراً ، فهؤلاء لا يتبعهم الغاوون ، ولا يهيمون في أودية القول ، لأن طريقهم واضحة ومعروفة ، فهم ملتزمون جانب الحق ، فلا يمدحون بالكذب ، ولا ينهشون الأعراض ، بل يثنون على الله ويمدحون رسوله وصحابة رسوله ، ويدعون الى الخير والزهد والآداب ، وأنهم يقولون ما تؤمن به قلوبهم ، وما تؤكده وتحققه تصرفاتهم ، اما هجاؤهم فكان على سبيل الانتصار من الذين يهجونهم ، ولذلك قال سبحانه : « وانتصروا من بعد ما ظلموا ، من غير اعتداء ولا زيادة قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » وقيل : ان المستثنين هم عبدالله بن رواحة ، وحسان بن ثابت والكعبان : كعب بن مالك وكعب بن زهير ، وليس هناك ما يدعو الى هذا التخصيص .

وكأن في الآيات محاجة للكفار في ادعائهم ان الرسول شاعر ، وما جاء به قول شاعر ، فهي تقول لهم : أنتم – يا معشر الكفار – ادرى الناس بأنه ليس بشاعر ، وما جاء به ليس بقول شاعر ، لأن الشعراء الغالب على كلامهم الغي

والهجاء ، والكذب ، وما أنزل على الرسول ما هو إلا صدق ورشد وهدى .
والشعراء يتبعهم الغاوون السفهاء ، وانتم تعلمون ان من اتبع محمداً أفضل الناس.
ثم اقتضت الحاجة مهاجمة الشعراء الذين أبوا الايمان وهاجموا الرسول والمسلمين في شعرهم ، وذلك بأن أظهر الله حقيقة حالهم وفضحهم ، فهم يتيهون في الضلال ، وفي كل واد من أودية القول ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، غير مؤمنين او ملتزمين بشيء ، يقولون قولا لا يقدرون خطورته ، وليس له إنعكاس في نفوسهم أو في قلوبهم وليس له تأثير في سلوكهم ، فيشققون الكلام ويغالون في المنطق ، ويجاوزون حد القول ويقلبون الحقائق ، فيجعلون الجبان شجاعاً والبخيل كريماً ، ولهذا فهم لا يستجيب لهم ولا يصدقهم فيما يقولون ولا يتبعهم إلا الغاوون. أما شعراء المسلمين الذين يجاهدون بألسنتهم وبشعرهم ويدافعون عن الاسلام والرسول ، ويعملون الصالحات فهم مستثنون .

وبذلك يبين الله سبحانه للشعر وللشعراء ، الدور الحقيقي الذي يجب أن يقوموا به ، وهو أن يكونوا في جانب الحق والشرف وخير الانسان ، مؤمنين بالله ، ومعه ضد الظلم والطغيان مع القيم العليا ، ضد الانحراف والفساد وقوى الشر .

* * *

لقد رأينا مما سبق من آيات ، أن الله سبحانه ينفي في محكم آياته ، أن يكون رسوله شاعراً ، وما أنزل عليه قول شاعر . فما القول فيما وجد من القرآن على نظام الشعر من مثل قوله تعالى: «الحامدون السائحون الراكعون الساجدون» إذ من الممكن أن يكون على وزن : (متفاعلن متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلان) وعلى هذا يتفق مع وزن مجزوء الكامل المذال ، وكذلك قوله تعالى : « والله

يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » فهو يتفق معه في الوزن نفسه (متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلان) وأما قوله سبحانه : « مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات » فمن الممكن أن يكون على وزن (فاعلاتن ، فاعلاتن ، فاعلاتن ... فاعلاتن فاعلاتن ، فاعلات) وهو أساس بحر الرمل . أو يوقف عند قوله « تائبات » وفي هذه الحال يتفق مع مجزؤ الرمل المقصور الضرب لأن التام لا تصح عروضه. ومن ذلك أيضاً قوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» فهو يتفق كذلك مع وزن مجزؤ الرمل: (فاعلاتن ، فاعلاتن، فاعلاتن فاعلاتان) ومن ذلك الكثير . فهل اتفاق بعض الآيات أو أجزاء منها مع نظم بعض الأشطر أو الأبيات الشعرية ، يجعل القرآن ، أو حتى تلك الآيات من جنس الشعر ؟ ان تلك القضية ذكرها علماء العروض ونقاد الشعر ، وجعلوا من حد الشعر وتعريفه : القصد ، فقالوا: ان الشعر هو الكلام الموزون قصداً بوزن عربي ، وذلك لتخرج بعض الآيات التي اتفق وزنها مع بعض البحور ، لأن القصد هنا غير متحقق . ومع احترامنا لشرط القصد إلا أنه وحده لا يكفي ، فلو فرض وأنشأ انسان قصيدة تتفق مع وزن أحد البحور ، من غير أن يقصد قول الشعر ، لأنه لا يعرف ما هو الشعر ، وفي الوقت نفسه صاحب موهبة ، ألا تسمى تلك القصيدة شعراً ؟ ان شرط الشعر أو حده بعد الوزن والقافية والخيال – في رأيي – هو أن يكون العمل متكاملاً . ولعل القدماء كانوا يقصدون بشرط القصد ذلك ، لأن العمل الذي يتزن بعضه ولا يتكامل لا يمكن أن يكون صاحبه قد قصد منه أن يكون شعراً بل جاء الوزن اتفاقاً . ومن هنا إذا نظرنا في الآيات التي مرت أو في غيرها ، نرى في الغالب والكثير انه قد انتزع منها ما يتفق والوزن ، ولو وضعت الآية كاملة لخرجت من دائرته. ومن ذلك الآية الكريمة : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » فقد اقتطعوا منها : « الحامدون السائحون الراكعون الساجدون » حتى يمكن أن تكون على وزن مجزؤ الكامل ، مع أنه لو ابتدىء

من أول الآية، لأمكن أن تتفق مع بيت تام، ولكن ليس في الرجز أو الكامل التام ما ضربه مذال ، وقد عدل عن الرجز إلى مجزوء الكامل حتى يصح. وحتى لو كان البيت تاماً فهو أيضاً مجتزأ ، فسيتبقى من الآية قوله تعالى : « الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » ومن ذلك الآية الكريمة : « مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات » إذ بقية الآية : « ثيبات وأبكاراً » وكذلك قوله سبحانه « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » إذ بقيتها : « وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » . أما الآية الكريمة : « فراغ إلى اهله فجاء بعجل سمين » فمن الممكن ان تكون على وزن مجزوء المتقارب (فعـــول ، فعولن فعو... فعول فعولن ، فعول) . وهذه آية مستقلة وعلى كل فالغالب على ما اتفق وزنه أنه جزء من آية . وسواء اكان آية أو بعض الآية فلا يمكن ان يسمى شعراً ، إذ ليس كل كلام اتفق جزء منه مع وزن بعض بحور الشعر صار شعراً ، لأن الشعر نظام وبناء متكامل ولا بد ان يكون البناء كله متفقاً مع بناء الشعر وإلا سمينا بعض الاحجار بيتاً لأنهـــا متساوية ، ومن الممكن ان يبنى منها بيت فالنظم إذن جاء عرضاً واتفاقاً ولم يطرد حتى يكون بناء متكاملاً فما قبل تلك الآيات التي اتفق وزنها ، وما بعدها لا يتفق معها في الوزن . وإذن فإن اتفاق بعض الآيات او اجزاء منها مع بعض اوزان البحور ، لا يدخلها في حيز الشعر ، اياً كان المقصود به . ثم ان المشركين انفسهم كانوا يعرفون ، ان مـــا انزل على الرسول الكريم من كلام الله ، ليس بشعر ، ولذلك لم يقولوا ابداً ؛ انه شعر ، بل قالوا : قول شاعر ، وان الرسول شاعر . وحينما رد الله سبحانه وتعالى التهمة عن كتابه قال : ومـــا هو بقول شاعر والمشركون يقصدون — مغالطين — ان مـــا جاء به الرسول ﷺ يشبه ما يجيء به الشعراء من حيث التأثير وقوة البيان ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يقولوا ان القرآن شعر لأنهم خير من يعرفون انه غـــير الشعر ، وان نظامه يختلف اختلافاً بينـــاً عن نظام الشعر ، ولذلك قال الوليد بن المغيرة للعرب في

شأن الرسول عليه السلام . تزعمون انه شاعر وما فيكم احد اعلم بالشعر مني ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟.

* * *

هذا ما كان بالنسبة إلى القرآن الكريم ، أما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ ، فقد نفى عنه الله الشاعرية لأنه نبي ورسول ، هيىء وأعد للهداية والنبوة ، ولم يهيأ لقول الشعر ، فإذا أورد على لسانه بعضه ، على فرض صحته من مثل قوله:

أنا النبي لاكــــذب أنا ابن عبـد المطلب

فقد ورد أن النبي عليه السلام قال ذلك في غزوة حنين . وروى البخاري (جـ ٨ ص ٣٥) أن النبي ﷺ ، عثرت قدمه في حجر ، فدميت إصبعه فقال :

ما انت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وقيل ان ذلك كان تمثلاً بقول ابن رواحة. والأمر هنا مختلف إلى حد ماعنه في القرآن الكريم ، فهنا بيت كامل لفظاً ومعنى ومبنى ، ولم يقتطع من غيره ، ولم يخرج عن السباق ، وله شكل الشعر غير انه بيت واحد من الرجز قيل في لحظة انفعال وليس عملاً متكاملاً . والذي يقول بيتاً أو بيتين لا يصبح شاعراً ، ولم يصبح الشعر له سليقة فالانسان لا يتصف بصفة مـا إلا إذا كان قادراً على الاتيان بها ومزاولتها متى أحب ، وأنتج منها مــا يريد في أغلب أحواله وأصبحت دالة عليه ، وكالعادة بالنسبة اليه ، واشتهر بها ، فليس كل من قـال بيتاً أو بيتين أصبح شاعراً .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى ، قد نفى عن رسوله الشاعرية ، وعن قرآنه أن يكون قول شاعر ، فهل معنى ذلك ان الرسول الكريم خاصم الشعر فلم يسمعه ولم يردده ولم يهتم به ؟ ان الانسان قد لا يستطيع الشيء ما دام لم يهيأ له،

ولكنه يعجب به ويردده.وإذا كان عليه السلام قد ردده واهتم به، فما نوع هذا الشعر، هل كل الشعر أياً كان نوعه ؟ ان الله سبحانه قد حدد لرسوله ، كما حدد للمسلمين، شعراء ومتذوقين، نوع الشعر، إنه الشعر الذي يشارك في بناء الأمم، الشعر الذي يتحمل المسئولية، ويشجع على الاخلاق الفاضلة والمثل العليا، الذي يحمل لواء الحق والصدق والنضال ، وليس ذلك الذي يشجع على الرذيلة ويثير الشهوة ، ويحسن القبيح ، ويحرك البغضاء ، ويهيج الأحقاد ، فيقطع الأوصال ويميت النخوة . وذلك في قوله تعالى : « والشعراء يتبعهن الغاوون » .. الآية كما سبق ان بينا .

ان الرسول الكريم لم يبغض الشعر ، ولم يتجنبه وأهله ، بل كان على علم بالشعر والشعراء ، ففي الطبري (٣٦١/٢) ان كعب بن مالك ، كان قد ذهب هو والبراء بن معرور ، من المدينة إلى مكة ، فقدمهما العباس إلى الرسول ، فقال الرسول ﷺ للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال نعم. هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك – قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ الشاعر ؟ قال : نعم . فهذا يدل على دراية وبصر بالشعراء واهتمام بالشعر . وكيف لا يهتم بالشعر وبقدره ، وقد وضع لحسان بن ثابت منبراً في مؤخرة المسجد ، ينشد من فوقه شعره ، ويقول : اللهم أيده بروح القدس ؟ .

ولقد كان ﷺ يستمع إلى الشعر الذي يتفق مع مبادىء الدين الذي أرسل به ، ففي صحيح مسلم (٤٨/٧) عن عمرو بن الشريد ، عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال : هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء ؟ قلت : نعم . قال : هيه ، فأنشدته بيتاً ، فقال : هيه ، ثم انشدته بيتاً ، فقال : هيه حتى انشدته مائة بيت . وفي رواية أخرى زاد : فلقد كاد يسلم في شعره . ونحن نعلم أن أمية بن أبي الصلت كان من الشعراء الذين نظروا في الكتب ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية والتمس الدين ، وحرم

الخمر ، وشك في الأوثان ، الا انه لم يسلم حسداً وحقداً ، لأنـه كان يطمع في النبوة . ومن شعره قوله (الاغاني ٤ : ١٢٩) :

الحمـد لله ممسانا ومصبحنا   بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها   مملوءة طبق الآفـاق سلطانا
الا نبي لنـا منا فيخبرنا   ما بعد غايتنا من رأس محيانا
بينا يربيننا آباؤنا هلكوا   وبينا نقتني الاولاد افنـانا
وقد علمنا لو ان العلم ينفعنا   أن سوف يلحق أخرانا بأولانا

ومن ذلك ما روي عن عمرو بن مسلم الخزاعي عن ابيـه : كنت عند النبي ﷺ فأنشدته قول سويد بن عامر ين المصطلق :

لا تأمنن وان أمسيت في حرم   ان المنايا بجنبي كل انسان
واسلك طريقك تمشي غير مختشع   حتى تلاقي ما يمني لك المـاني
فكل ذي صاحب يوماً مفارقه   وكل زاد وان بقيته فـاني
والخير والشر مقرونان في قرن   بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال النبي ﷺ : لو أدركني هذا لأسلم ... (مجمع الزوائد : ١٢٦/٨) .

ولم يقتصر الامر على سماع الشعر الذي يزهد في الدنيا، ويذكر بالموت فقط، بل انه استمع الى شعر يحكي تجربة انسانية حياتية ، فقد جاء شاعر هو الأعشى الحرمازي ، فأنشد النبي أبياتاً تصور ضيقه بامرأته التي تعصاه ، وتنغص عليـه حياته بنزاعها وخلافها ، ومكرها ودهائها فقال :

يا مالك الناس وديان العرب   إني لقيت ذربـة من الذرب
غدوت أبغيها الطعام في رجب   فخلفتني بـنزاع وحـرب
أخلفت العهد ولطت بالذنب   وهن شر غالب إذا غلب

فجعل النبي يقول : « وهن شر غالب إذا غلب » (مجمع الزائد : ١٢٦/٨).

ولقد كان الرسول الكريم يبصر الشعراء المسلمين بمواطن القول الحق محاولاً إبعادهم عن الروح الجاهلية التي نشأوا فيها وقالوا شعرهم ، من فخر بالعصبية ، فقد قال كعب بن مالك في قصيدة له يرد فيها على هبيرة يوم أحد :

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة   مذربة فيها القوانس تلمع

فقال رسول الله ﷺ : أيصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب : نعم . فقال رسول الله ﷺ : فهو أحسن ، فقال كعب : مجالدنا عن ديننا (السيرة النبوية لابن هشام : ١٣٦/٢) . والجذم الأصل . ومعنى البيت : يدافع عن أصلنا كل كتيبة عظيمة مستعدة بأجهزة القتال ، ومختلف الأسلحة الحادة اللامعة . فالرسول الكريم يبصر كعباً بما يجب أن يقال فالدفاع عن الأصل والجنس والقبيلة ، والتعصب لذلك ، قد محاه الإسلام ، وأصبح الدفاع دفاعاً عن الدين . والملاحظ أن الرسول اختار اللفظ المناسب ، واستشار الشاعر في لطف : أيصلح أن تقول كذا ؟ لأنه يريد أن ينبهه الى ما يجب أن يقول بأسلوب بعيد عن القسر .

وفي موقف آخر رغب الرسول أن يعرف كيف يقول الشاعر الشعر ، فقد ورد عن عبد الله بن رواحة قال : بينا أجتاز في المسجد ورسول الله في ناس من أصحابه ، إذ قال القوم : يا عبد الله بن رواحه ، فظننت ان رسول الله يدعوني فجئت . قال : اجلس يا عبد الله بن رواحه . كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول ؟ قلت : أنظر ثم أقول . قال : عليك بالمشركين ، ولم أكن أعددت لذلك شيئاً فقلت :

فخبروني أثمان العباء متى   كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر

فنظرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ ، أن جعلت قومه أثمان العباء –

وذلك لان المعنى : خبروني يا معشر قريش ، يا من لا تثمنون ولا تقـدرون إلا بالعباء ، وهي الثياب المعروفة ، متى كنتم سادة — فنظرت ثم قلت :

يا هاشم الخير ان الله فضلكم   على البرية فضل ما له غـبر
اني تفرست فيك الخير أعرفه   فراسة خالفتهم في الذي نظروا
ولو سألت أواستنصرت بعضهم   في جل أمرك ما آووا ولا نصروا
فثبت الله ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

قال : وأنت فثبتك الله يا ابن رواحه . (مجمع الزائد: ١٢٤/٨) (والطبقات الكبرى : ٥٢٨/٣) .

ولقد سمع الرسول عليه السلام كثير من الشعر ، واستمع الى كثـير من الشعراء : الشعر الذي كان يرثى به شهداء المسلمين ، أو الذي كان يُردّ به على المشركـين ، وكان كثير من صحابته ﷺ شعراء ، يردون على المشركين ، ويرددون الشعر قبل المعارك ، وأثناء العمل ، ومنهم علي بن أبي طالب ابن عم الرسوم وصفيه . بل كان الرسول يردد الشعر مـع المسلمين في إنشادهم الجماعي أثناء العمل ، ففي الطبقات الكبرى (٧١/٢) عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يوم الاحزاب ينقل معنا التراب ، وقـد وارى التراب بياض بطنه ويقول :

لهم لولا أنت ما اهتدينا   ولا تصدقنا ولا صلينـا
فأنزلن سكينـة علينـا   وثبت الاقدام ان لاقينا
ان الاولى لقد بغوا علينا   إذا أرادوا فتنـة أبينـا

أبينا يرفع بهـا صوته ﷺ . « كما كان يتمثل بالاشعار ، فقد قيل للسيدة عائشة . هـل كان النبي ﷺ ، يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل

بشعر ابن رواحه . ويتمثل ويقول : ويأتك بالاخبــار من لم تزود » . (صحيح الترمذي : ٢٩١/٨) .

وكان العرب يعرفون ان الشعر هو افضـــل وسيلة الإثارة وعرض القضايا وبخاصة الخطيرة منها ، حتى تكون الاستجابة أسرع . وكانوا يرون ان الرسول ﷺ ، وهو عربي منهم ، لا يفترق عنهم في ذلك . ولهذا حينما نقضت قريش ما كان بينها وبين الرسول عليه السلام من العهد، فنصرت بني بكر على خزاعة ، التي كانت قد تحالفت مع الرسول ، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال :

يا رب إني ناشد محمــداً	حلف ابينـا وابيــه الاتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا	ثمت أسلمنا فلم ننزع يــدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا	وادع عبـاد الله يـأتوا مددا
فيهم رسول الله قـد تجردا	ان سيم خسفاً وجهـه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا	ان قريشاً اخلفوك الموعـدا
ونقضوا ميثاقـك المؤكدا	وجعـلوا لي في كداء رصدا
وزعموا ان لست ادعو احدا	وهـم اذل واقـل عـددا
هم بيتونا بالوتـير هجدا	وقتـلونا ركعـاً وسجـدا

فانصر هداك الله نصراً أبدا

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم . (السيرة النبوية لابن هشام: ٣٩٤/٢) . وكان ذلك سبباً في فتح مكة .

وإذا كان الرسول قد استمع الى الشعر وردده ، وتمثل به كما رأينا ، فلماذا قال : لأن يمتلىء جوف احدكم قبحاً بربه ، خير من ان يمتلىء شعراً ؟ (صحيح الترمذي : ٢٩٢/٨) وفي تلك الصورة المنفرة ؟ لقد قال شراح الحديث : المراد

ألا يكون الغالب عليه الشعر بحيث يشغله عن ذكر الله وعن القرآن ويؤيده التعبير بلفظ يمتلىء . وهناك رواية اخرى «عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً أو دماً خير له من أن يمتلىء شعراً هجيت به » (مجمع الزائد : ٨/١٢٠) وهذه الرواية تحدد نوع الشعر المحرم والمنفر منـــه . ولكن جاء في رواية اخرى عن ابي سعيد الخدري قال :

بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقـــال رسول الله : خذوا الشيطان ، أو أمسكوا الشيطان . لأن يمتلىء جوف رجل قبحاً خير له من ان يمتلىء شعراً (صحيح مسلم : ١٥/١٤) . ولم تبين الرواية ما كان ينشده ، إلا أنه لا يمكن أن يكون هجاء للرسول عليه السلام ، ولكن يمكن أن يكون فحشاً من القول أو مما ينكر ، أو لعله ممـــا يثير النعرة القبلية والخصومات القديمة ، وإلا لما قـــال الرسول : خذوا الشيطان او امسكوا الشيطان ويجانب تلك الروايات جاء في حديث آخر عن ابن هريرة قال: رخص لنا رسول الله ﷺ في كل شعر جاهلي، إلا قصيدتين للأعشى زعم انه اشرك فيهما. وفي روايـــة رخص رسول الله ﷺ في شعر الجاهلية إلا قصيدتين للأعشى، إحداهما في اهل بدر ، والاخرى في عامر وعلقمة (مجمع الزائد : ٨/١٢٢) .

ويترتب على هذا الحديث إنه تجوز رواية الشعر وقراءته ما لم يكن شركاً او هجاء لمسلم . ونستطيع ان نخرج من كل ذلك بأن الشعر بصفة عـــامة يصح سماعه وقراءته وحفظه ، ما لم يكن شركاً او هجاء لمسلم ، بدليل ان الرسول سمعه وأثاب عليه . اما الاهتمام به ، وجعله الغاية الاولى والاخيرة ، او الشاغل الاكبر – فهذا منهي عنه . وإذا كان هجاء سيقطع اوصال الامة ، او يثير العصبيات القديمة فيمنع من ذلك لانه سيضيع الغاية من الاخوة الإسلامية، وبناء الأمة التي هي خير امة اخرجت للناس. ولعل الرسول عليه السلام يريد ان يضع الشعر في موضعه الصحيح، فلقد كان هو المقدم، وهو علم القوم وموضع اهتمامهم في الجاهلية ولكن بعد ان نزل القرآن الكريم ، كان لا بد للشعر من ان يتقهقر

ويترك المنزلة الأولى ، والمكان الأول للقرآن الكريم ، فهو الجـامع لعقيدتهم وأحكام شريعتهم ، والنور الذي يهتدون به في دنياهم وأخراهم . ولهذا نرى أن الشعر في أول الدعوة الإسلامية ، كان محل اهتمام أكبر منه بعد أن استقرت الأمور لها . وذلك لأن المشركين استغلوا سلاح الشعر في الهجوم على المسلمين ، فما كان من الرسول إلا انـه استخدم السلاح نفسه ، ليرد عليهم بسلاحهم ، وبخاصة ان ميدان المعركة نفوس الذين لم يؤمنوا بعد وأمضى مـا يؤثر فيهم سلاحهم الذي خبروه ، وتعودوا عليه ، وهو الشعر .

ولقد كان الشعر وسيلة من وسائل الظهور والفصاحة ، والغلبة وعقدالصلات ، به تنتصر القبائل وتنطق الوفود بلسانه ، فاستفـاد الرسول بذلك السلاح واستعمله ، ولو تنكر له مطلقاً لكان قد اهمل – وحاشا له أن يهمل – سلاحاً ماضياً ، له سحره ومكانته وتأثيره في قومـه ، فهو الكلمة السائرة والموسيقى المطربة . وما دام المسلمون سيستخدمون سلاح الشعر ، فلا بد أن يكون صوت شعرائهم أعلى ، وحجتهم أقـوى ، وحـتى يكون لذلك أثره في نفوس المستمعين ، والمتلهفين على سماع الشعر والمهتمين بروايته وما أكثرهم. ومما يؤكد ذلك قصة وفد بني تميم ، فحينما جاء الوفد جـاء على نظام الجاهلية ، يفاخر الرسول بخطيبه وبشاعره. وقام الخطيب يفتخر بأن الله أعطاهم الأموال العظيمة ، وجعلهم ملوكاً أعزة ، كما يفتخر بكثرة العدد وقوة العـدة . وقام خطيب الرسول عليـه السلام فرد فخرهم بفخر أعظم ، وهـو أن الله جعلهم ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولاً ، وأنهم الذين آمنوا به ونصروه . ثم قام شاعر القوم ، وهو الزبرقان بن بدر ، فافتخر بأنهم الكرام والملوك والمتعبدون والأقوياء وأنهم لشجاعتهم وكرمهم وقوتهم وعـلو شأنهم لا يستطيع أحد مفاخرتهم ، فرد عليه حسان بن ثابت بأن الرسول وصحبه من المهاجرين والانصار قد بينوا للناس طريق الحق ، ووضحوا شريعة السماء ، التي يرضى بها كل انسان مؤمن تقي مخلص أمين ، وبأنهم شجعان وكرماء ، أقوياء وقادرون غير مخادعين.

وكان حسان غائباً حين جاء الوفد فبعث إليه الرسول ﷺ من أتى به . فلما فرغ الزبرقان قال الرسول لحسان : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال ، فقام حسان فقال :

إن الذوائب من فهروا اخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... ان الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سبّاقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعوا
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم ... او وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
إذا نصبنا لحى لم ندب لهم ... كما يدب الى الوحشية الذرع ..

(الابيات)

فلما فرغ حسان من قوله قال الأقرع بن حابس : وأبي ان هذا الرجل – يقصد الرسول الكريم – لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا . فلما فرغ القوم ، أسلموا وجوزهم رسول الله فأحسن جوائزهم . (ابن هشام : ٢/٥٦٠ وما بعدها) .

وإذن فقد استخدم الرسول الشعر ، باعتباره سلاحاً مشهوراً ومعروفاً في يد العرب . ولكن هل ذلك الاستخدام يضاد الدين ويقف ضد مبادئه ، لو كان ذلك كذلك لما استعمله الرسول ولما أقره . لقد شهر المشركون هذا السلاح ، في وجه الرسول والمسلمين والدين الجديد الذي جاء ليبدل حياتهم . ونحن نعلم أن الشعر كان ولا يزال ، سلاحاً إعلامياً نفسياً ماضياً . فهل يترك الرسول الكريم هذا السلاح في يد المشركين ، من غير رد وبدون مواجهة ؟ لقد طلب الرسول من شعراء المسلمين ان يبرزوا لشعرائهم . وكما ورد في الاحاديث

والاخبار ان الرسول ﷺ طلب من حسان بن ثابت، ومن كعب بن مالك، ومن عبدالله بن رواحه، أن يردوا على شعراء المشركين، فقد روي عن كعب بن مالك انه قال: « قال رسول الله ﷺ: اهجوا بالشعر ان المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمد بيده كأنك تنحرهم بالنبل ». وفي رواية اخرى: « إن المؤمن يجاهد بنفسه ولسانه ». (مجمع الزائد: ١٢٣/٨). كما روي أيضاً من حديث انس، « جاهدوا المشركين بألسنتكم ». (فتح الباري: ٤٥٢/١).

* * *

لقد تبين لنا مما سبق إن الرسول عليه السلام، يقدّر الشعر حق قدره ويدرك مدى اهميته وخطورته وتأثيره في نفوس قومه. فما هو الدور الذي رسمه لهذا الحد القاطع؟ وما هي المهمة التي أراد أن يقوم بها؟

لقد نبه الرسول الى اهمية الكلمة وخطورتها بصفة عامة، وبين دوراللسان والفصاحة وقوة التعبير في بناء المجتمع، وفي تغيير النفوس. وكيف لا يقدر الرسول دور الكلمة، وينبه الى مدى خطورتها، وقد كانت معجزة الكلمة؟! وإذا كان هناك من يهتم اليوم بدور الكلمة ويدرك مدى خطورتها، ويدعو الى شرف الكلمة، والإلتزام بصدقها ونفعها، وأن تكون في خدمة المجتمع الفاضل، لا أن تكون وسيلة ضرر وفساد فإن الرسول عليه السلام، أفضل من نبه إلى ذلك منذ قرون وخير من بين دورها ورسم حدودها، فقد ورد عنه ﷺ ما يدعو الناس إلى القصد في القول، وإلى عدم التفاصح الكاذب والخادع، ومن ذلك قوله: «الحياء والعي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق». (الترمذي: ١٣٨/٨). ويقول أيضاً محذراً من الاستهانة بقدرالكلمة داعياً إلى الاهتمام والبصر بخطورتها وتقدير مسؤوليتها وآثارها — يقول رسول الله: « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار —»

(الترمذي : ٩/١٩٥). ويروى عنه كذلك قوله : « ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك بـه القوم فيكذب . ويل له ويل له » (الترمذي : ٩/١٩٦) . كما روي عنه ﷺ قوله : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن أحـدكم يتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » (المصدر نفسه) .

وإذن فالرسول عليه السلام ، يريد من الكلمة ولها ، أن تكون في خدمة المجتمع الفاضل والإنسان الحر الشريف . وقبل أن ينطق بها الانسان لا بد له من ان يقدر اهميتها ودورها وافادتها وضررها . فهو محاسب عليهـا ان خيراً فخير وان شراً فشر . وما الفن بصفة عـامة ، إلا نوع من الكلمة فالمقصود بالكلمة التعبير أياً كان لونه . وإذا كان الرسول عليه السلام ينبه الى اهمية الكلمة وشرف مسؤوليتها عـامة ، فإن شرف المسؤولية بالنسبة الى الأدب والشعر الذي هو تأثيره أعظم ودوره أخطر ، يكون أشد لزاماً وأولى بالرعاية .

* * *

ولم يقف الرسول ﷺ ، عند حد بيان خطورة الكلمة والتحذير من التفاصح المقيت والكاذب بصفة عامة ، بل بين حدود القول في كل مجال ، وأوضح معالم كل غرض من أغراض الشعر . ولقـد كان يستقطب الشعر في تلك الفترة أغراض محدودة . هي : الفخر وما يتصل به من المفاخرة والمنافرة والحمـاسة ورثاء القتلى والمدح والرثاء والوصف والهجاء والغزل .

أما الفخر والتفاخر ، فقد حوله الرسول من فخر بكثرة الأموال والأولاد ، والقوة الغاشمة ، إلى فخر بالدين والعقيدة ، والفضائل والأخلاق الكريمة ، والقوة غير المعتدية ، وغير الباغية ، ولهذا وجدنا من فخر من بني تميم ، في وفدهم على

الرسول ، يفخر بالكثرة والمال والقوة ووجدنا فخر المسلمين في ردهم عليهم بالإسلام وبنصرته ونصرة الرسول وهداية الله لهم ، وبالقوة الدافعة للظلم في غير بغي . ولهذا وجدنا الرسول الكريم ينبه كعب بن مالك ، الى ما يحق له أن يفخر به ، وما يجب الدفاع عنه ، فاذا كانوا في الجاهلية يفخرون ويدافعون عن الأصول ، فانهم بعد أن شرفهم الله بالإسلام ، يفخرون ويدافعون عن الدين فغير له موطن الدفاع في شعره من الجذم وهو الأصل الى الدين . كما مرّ آنفاً .

أما الشعر الحماسي ، من حث على القتال ورثاء القتلى – وهو الشعر الذي يعتبر جزءاً من المعارك ، وله دور كبير فيها – فقد تغير مضمونه تبعاً لتغير الدافع على القتال ، فبعد أن كان الدافع هو الغلبة القبلية ، والصراع القبلي ، أصبح الدافع هو نصرة الدين ، وأن تعلو كلمة الله ، ويعم الخير والحق والعدل ، فكان للشعر صوته في الصراع بين الايمان والكفر . ومن هنا كثر الشعر الحماسي الذي يحبذ الموت في سبيل الله . والشعر الذي يرثي الشهداء . وكتب السيرة مملوءة بشعر الحماسة في الحرب ورثاء شهداء المسلمين في مواقعهم المختلفة ورثاء سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، وسعد بن معاذ . ومن ذلك قول حسان في بكاء ابن معاذ وغيره : (ابن هشام : ٢/٢٧٠) .

ألا يا لقومي هل لما حمّ دافع ... وهل ما مضى من صالح العيش راجع

تذكرت عصراً قد مضى فتهافتت ... بنات الحشى وانهل مني المدامع

صبابة وجد ذكرتني أحبة ... وقتلى مضى فيها طفيل ورافع

وسعد فأضحوا في الجنات وأوحشت ... منازلهم فالأرض منهم بلاقع

وفوا يوم بدر للرسول وفوقهم ... ظلال المنايا والسيوف اللوامع

دعا فأجابوه بحق وكلهم ... مطيع في كل أمر وسامع

فما نكلوا حتى تولوا جماعة ولا يقطع الآجال إلا المصارع
لأنهم يرجون منه شفاعة إذا لم يكن إلا النبيون شافع
فذلك يا خير العباد بلاؤنا إجابتنا لله والموت ناقع
لنا القدم الأولى إليك وخلفنا لأولنا في ملة الله تابع
ونعلم أن الملك لله وحده وان قضاء الله لا بد واقع

وقول ابن رواحة في بكاء حمزة : (ابن هشام : ١٦٢/٢)

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل
على اسد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هدت وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام ربك في جنان مخالطها نعيم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيار صبراً فكل فعالكم حسن جميل
رسول الله مصطبر كريم بأمر الله ينطق إذ يقول
الا من مبلغ عني لؤيا فبعد اليوم دائلة تدول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا وقائعنا بها يشفى الغليل
نسيتم ضربنا بقليب بدر غداة أتاكم الموت العجيل
غداة ثوى ابو جهل صريعاً عليه الطير حائمة تجول .

فالرثاء هنا جزء من شعر المعركة ، بين الإيمان والشرك . وهو لون من الجهاد والدفاع عن الإسلام ، اختلط به ودعا إليه الرثاء .

* * *

أما المديح فقد رأينا أن الرسول ، قد سمع المدح وأثاب عليه . وقصة كعب بن زهير بن أبي سلمى مشهورة ، فقد كان في جبهة الشعراء المعادين

للرسول والإسلام . وهؤلاء كانوا لساناً من ألسنة العداوة والبغضاء وكان شعرهم سلاحاً في يد الشرك والمشركين يهـــاجمون به الرسول والمسلمين ويهجونهم على سنة الجاهلية . فلما فتح الرسول مكة ، قتل بعض الشعراء الذين كانوا يهجون ويفحشون في الهجاء وأصروا على كفرهم . وكان بجبر بن زهير ، أخو كعب سلما ، فأرسل الى أخيه كعب يحذره ، ويطلب منه أن يأتي تائبـــاً ، إذا كان قد أحس هداية في نفسه، لأن الرسول لا يقتل أحداً جاءه تائباً؛ وإلا فليحاول النجاة . ولما بلغه الخطاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه غير أنــه صنع قصيدة يمدح فيها رسول الله ، ويصف فيها حاله وخوفه . ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل من جهينة كانت بينهما معرفة ، فغدا به الى رسول الله ﷺ ، وقت صلاة الصبح فصلى مع الرسول ، ثم أشار له قائلاً : هذا رسول الله ، فقم إليه فاستأمنه ، فقام الى الرسول حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان الرسول لا يعرفه فقال : يا رسول الله ان كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك ، تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ، ان أنا جئتك به ؟ قـــال رسول الله : نعم : قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير ، فوثب عليه رجل من الانصار وقال : يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه فقال ﷺ : دعه عنك فانه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه ثم أنشد الرسول قصيدته التي مطلعها (ابن هشام : ٥٠٣/٢) .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفـــد مكبول

وفي رواية أن الرسول اثابه وأعطاه بردته جائزة له (بلوغ الارب:١٣٦/٣) .

ومن هنا يتضح أن الرسول قد سمع المدح ، وأثاب عليه . وهو لم يمدح من كعب فقط ، وإنما مدح من حسان ، ومن كعب بن مالك وعبد الله بن رواحه وغيرهم . فما نوع المديح الذي مدح به واستمع إليه ؟ إننا نجد كعب بن زهير، يمدحه عليه السلام ، بأنه قد أنزل عليه القرآن ، وبأنه شديد السطوة ، قوله القول الفصل ، وانه أشد قوة وأكثر إخافة من الأسد ، وأنه كالنور يهتدى به

إلى الحق ، وأنه سيف الله المسلول على الباطل والضلال . ثم يمدح المسلمين وان شئت المهاجرين ، بحسن الاستعداد للقتال وبالشجاعة ، وبالقوة الحسية والنفسية :

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن ، فيها مواعيظ وتفصيل
حتى وضعت يميني ما أنازعه في كف ذي نقمات ، قيله القيل
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه وقيل : انك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره في بطن عثر غيل دون غيل
إن الرسول لنور يستضاء بـه مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ، ولا ميل معازيل
شم العرانين أبطال ، لبوسهم .. من نسج داود في الهيجا سرابيل
ليسوا مفاريح ان نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيع اذا نيلوا

ويقول عباس بن مرداس ، من قصيدة في يوم حنين مخاطباً الرسول مادحاً إياه ، بأنه مرسل بالحق ، وأن طريقه هو طريق الهدى ، وأن الله جعله محبوباً من الخلق ، وسماه محمداً ليكون محموداً : (ابن هشام : ٢/٤٦١) .

يا خاتم النبآء انك مرسل بالحق ، كل هدى السبيل هداكا
ان الإله بنى عليك محبة في خلقـه ، ومحمداً سماكا

ويمدح مالك بن عوف حين أسلم ، الرسول عليه السلام ، بامتيازه على جميع الناس ، وبالكرم ، والشجاعة ، والأخبار بالمغيبات قائلا : (ابن هشام : ٢/٤٩١) .

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمـــد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشأ يخبرك عما في غد
فإذا الكتيبة عردت أنيابهـا ... بالسمهري وضرب كل مهنـــد
فكأنه ليث على أشبالـــه ... وسط الهباءة خادر في مرصد

وإذا كان الرسول عليه السلام قد مُدح ، وأثاب على المديح كما رأينا ، فلماذا يروى عنه ﷺ ، ما يدين المديح بصفة عامة ، فضلاً عن أن يكون شعراً ، فقد روي عن مجاهد بن أبي معمر أنه قال : «قام رجل فأثنى على أمير من الأمراء ، فجعل المقدار يحثو في وجهه التراب ، وقال : أمرنا رسول الله ﷺ : أن نحثو في وجوه المداحين التراب» (الترمذي : ٢٣/٩) . وروي عن أبي هريرة أنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ ، أن نحثو في أفواه المداحين التراب» (الترمذي : ٢٤٠/٩) . وفي البخاري ، عن أبي موسى أنه قال : «سمع النبي ﷺ ، رجلاً يثني على رجل ، ويطريه في المدحة ، فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل » . و « عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ، أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ ، فأثنى عليه رجل خيراً ، فقال النبي : ويحك قطعت عنق صاحبك بقوله مراراً . ان كان أحدكم مادحاً لا محالة ، فليقل : أحسب كذا وكذا ، ان كان يرى أنه كذلك ، والله حسيبه ، ولا يزكي على الله أحد » . (فتح الباري : ٣١٧/١٠) .

ويتضح مما سبق من روايات ، أن الرسول عليه السلام ، يحذر من المديـح ويهاجمه ، بل أن الرسول أمر المسلمين ، أن يحثوا في وجوه وأفواه المداحـين التراب ، حتى يقلعوا عن مديحهم . وليست هناك صورة أو طريقة ، أبلـغ في الزجر من تلك الصورة وهذه الطريقة وهي تنبىء عن كراهية الرسول للمديح ، وكراهية انتشاره بين المسلمين . وذلك لأنه يهلك الممدوح ، فقد يركبه الغرور وينحرف ، ويشمخ بانفه ويتعـالى مغتراً بما سمع . ولقد رأى التاريخ ورأينا ، كثيراً ممن أهلكهم المديح . ولهذا قال الرسول للمادح ، والخطاب لجميع المادحين :

أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل . وفي رواية أخرى : قطعت عنق صاحبك ، كما أن المديح سيكون وسيلة للكذب والادعاء ، والرياء والنفاق مما يهز القيم الصحيحة ، ويجعلها مختلطة ، فلا يعرف الصالح من الفاسد ، ولا المستقيم من المعوج . ومما يجعل القيم تشترى ولا تمارس. ولهذا كره الرسول المغالاةوالتشدق في القول وتحسين القبيح بالتفاصح ، وقلب الأحوال عن طريق التأثير باللسان والبلاغة في القول ، وصولاً إلى الهدف وقضاء الحاجة ، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه ، كما تتخلل البقرة » (الترمزي : ٢٩٢/٩) .

وقد كان لعمر بن سعد بن أبي وقاص ، الى أبيه حاجة ، فقدم بين يدي حاجته كلاماً ، مما يحدث الناس يتوصلون به ، ولم يكن سعد يسمعه ، فلما فرغ قال : يا بني قد فرغت من كلامك قال : نعم . قال : ما كنت من حاجتك ابعد ، ولا كنت فيك أزهد مني منذ سمعت كلامك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون قوم يأكلون بألسنتهم ، كما تأكل البقرة من الأرض » (مجمع الزوائد : ١١٦/٨).

وإذا كانت هذه الأحاديث تتناول الكلام ، ووسيلة الوصول عن طريق التأثير باللسان ، بصفة عامة ، فهي لا تهمل الشعر ، لانه في القمة من ذلك . ثم ان الرسول عليه السلام نبه في حديث آخر ، الى أن الشعر نوع من الكلام فقد ورد عن عائشة ، رضي الله عنها ، انها قالت : « سئل رسول الله ﷺ ، عن الشعر ، فقال : هو كلام فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح . وعن عبدالله بن عمرو ، رضي الله عنه انه قال : « قال رسول الله ﷺ : الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام» (مجمع الزائد : ١٢٢/٨). وعلى هذا فان الرسول يحرم التكسب بالشعر أو على الأقل يبغضه وينفر منه ، ليس هذا فقط ، بل أن يزين الانسان ويحسن ويخادع وينافق ليصل إلى ما يريد . ولقد صور رسول الله ذلك في صورة منفرة ، فجعل الانسان الذي يعتمد على لسانه

وما يحسنه من قول ، في الوصول الى حاجته ، كالبقرة تعتمد على لسانهـــا في الوصول الى غذائها . وذلك لينفر من هـذا العمل . وإذن فالمديح المغالى فيه ، ومحاولة التكسب بالقول الخادع ، شعراً كان أو خطابة ، أو غيرهما من وسائل التعبير والاعلام ، ومحاولة الوصول إلى الشيء لا عن طريق أحقيته ، بـل عن طريق التغرير والتزوير في القول والخداع والنفاق وتشقيق الكلام ، والبلاغـة والتفاصح — قد هاجمه الرسول ونفر منه . وكذلك الوصول الى الهدف عن طريق المغالطه والتفاصح ، والتلاعب بالألفاظ والمناورة ولقد نهى رسول الله عن المديح — كذلك — خوفاً على المادح ، من التردي في الكذب واعتياده ، ولهذا قال : إذا كان احدكم مادحاً لا محالة ، فليقل : أحسب كذا وكذا ، ان كان يرى انـــه كذلك . والله حسيبه ، ولا يزكي على الله أحد . أي فليكن حريصاً في حديثه فلا يغالي ، ولا يبالغ في كلامه ، حتى يرتفع إلى درجة الألوهية . وكأنه ﷺ ، كان ينظر بعين الغيب إلى من سيبالغون — فيما يأتي من الزمان — ويأتون في مديحهم بأوصاف لا يتصف بها إلا الله . جل شأنه .

ويبقى بعد ذلك سؤال أو تساؤل . إذا كان هـذا هو موقف الرسول من المديح ، فلماذا استمع اليه وتقبله ؟ وإذا كان هذا هو موقفه من التكسب بالشعر وبالمدح ، فلماذا أثاب كعب بن زهير فأعطاه بردته ؟

وللجواب على التساؤل الأول نقـــول : ان الرسول في مأمن من الاغترار بالمديح . ثم انه لم يمدح هو وصحابته ، إلا بما هو فيهم ، وبصفات لم يبالغ فيها. حقاً كان هناك نوع من المبالغة في التصوير ، وفي بعض وسائله من تشبيه واستعارة. وذلك كقول كعب مادحاً الرسول الكريم ، بالشجاعة وبأنه يخاف منه أكثر من الأسد :

فلهو أخوف عندي إذا اكلمـه　　　وقيل : انك منسوب ومسئول

من ضيغم بضراء الأرض مخدره　　في بطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما　　لحم من الناس معفور خراديل
اذا يساور قرناً لا يحل له　　ان يترك القران إلا وهو مغلول
منه تظل سباع الجو نافرة　　ولا تمشّى بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه اخو ثقة　　مضرج البز والدرسان مأكول

إلا انها لا تخرج عن دائرة الحقيقة . وهي تصوير لواقع ، فلقد وضع الله هيبة الرسول في قلوب محبيه ، والخوف في قلوب أعدائه ، ولهذا يقول ﷺ : نصرت بالرعب مسيرة شهر . أما الاثابة فان كعب بن زهير لم يأت مادحاً، طلباً للثواب ، وإنما جاء تائباً طلباً للعفو فقبل الرسول توبته ، واعطاه بردته تأليفاً لقلبه ، وأما اثابة حسان ، كما ورد في بعص الروايات ، فلدفاعه باللسان عن الاسلام والمسلمين ، فهو يقوم بدور اعلامي . كما انه يجاهد بلسانه وشعره ، أجهزة الدعاية المغرضة والمضادة ، من شعراء المشركين ، ويرد طعناتهم اللسانية عن المسلمين .

أما الهجاء فهو وسيلة لتقطيع الأرحام، وإثارة العصبيات القديمة، والنعرات الجاهلية وإشعال الفتن والحروب والعداوات ، وهتك الأعراض وطعن القيم وانتهاك الحرمات . ولهذا نرى الرسول الكريم يقول : « من أحدث هجاء في الاسلام فاقطعوا لسانه » (مجمع الزائد : ١٢٢/٨) وفي حديث آخر : « من قال في الاسلام شعراً مقذعاً (أي الذي فيه فحش) فلسانه هدر » (مجمع الزائد : ١٢٣/٨) . ويفهم من الحديثين أن الذي يقطع لسانه ، هو من يهجو الاسلام ، ولكن من فعل ذلك ، قتل فعلاً ولم يقطع لسانه فقط . والحطيئة حينما هدده عمر بقطع لسانه لم يكن قد هجا الاسلام . أما من هجا الاسلام ، وشبب بنساء المسلمين ، فلم يكن لسانه فقط هو المهدر ، وإنما كان دمه . وذلك هو كعب بن الأشرف ، فقد حث الرسول على قتله فقتل . ويظهر أن السبب في قتله ، هو

بكاؤه قتلى المشركين في بدر ، وتحريضه أهل مكة على الأخذ بالثأر ، فهو إذن قد دخل المعركة محرضاً على قتال المسلمين ، مؤلبـاً عليهم الأعداء ، ومثيراً العداوة في غيظ وحقد ، ووقف أمام الدعوة يصد عن سبيل الله بلسانه وشعره ومن ذلك قوله ، مظهراً أساه على قتلى بدر ومعظماً المصاب : (ابن هشام : ٥٢/٢) .

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمـع

قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا ان الملوك تصرع

كم قد اصيب به من أبيض ماجد ذي بهجة يأوي اليه الضبع

ويقـول أقوام أسرّ بسخطهم إن ابن الاشرف ظل كعباً يجزع

صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ظلت تسوخ بأهلهـا وتصدع

ثم يثير القوم ويحرضهم ويتخيل انهم ذهبوا الى المدينة ، ليأخذوا بالثأر فيقـول :

نبئت ان بني المغيرة كلهم خشعوا لقتل ابي الحكيم وجدعوا

وابنا ربيعة عنده ومنبـه مـا نال مثل المهلكين وتبـع

نبئت ان الحارث بن هشامهم في الناس يبني الصالحات ويجمع

ليزور يثرب بالجموع وإنمـا يحمى على الحسب الكريم الأروع

ثم لم يكتف بذلك بل شبب بنساء المسلمين ، بعد ان عاد إلى المدينة . ومما يروي من ذلك قوله في أم الفضل زوج العباس عم النبي عليه السلام : (الطبري ٤٨٨/٢) .

اراحل انت لم تحلـل بمنقبة وتارك انت أم الفضل بالحرم

صفراء رادعة لو تعصر انعصرت من ذي القوارير والحناء والكتم

يرتج ما بين كعبيها ومرفقها	اذا تأتت قياماً ، ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا	والحيل منها متين غير منجذم
احدى بني عامر ، جن الفؤاد بها	ولو تشاء شفت كعباً من السقم

والظاهر ان له شعراً في الرسول والتحريض عليه ، وفي نساء المسلمين، أشد وآلم ، آثر الرواة عدم روايته ، بعد ان فتح الله للإسلام . وذلك مـــا حدا بالرسول أن يأمر بقتله ، وان كان ما ذكرناه فيه الكفاية لادانته واهدار دمه.

ويظهر – والله أعلم – أن المقصود من الحديث : ان من احدث واثار هجاء بعد ان صار مسلماً وعضواً في مجتمع الإسلام ، فلسانه هدر . ويؤيد ذلك قصة الحطيئة ، فقـــد هجا الزبرقان بن بدر ، فحبسه الخليفة عمر رضي الله عنه ، فاستعطفه تائباً ، فعفا عنه بعد ان هدده بقطع لسانه إذا عاد الى الهجاء ثم ان الرسول رخص في رواية الشعر الجاهلي وشعر الأعشى، ما عدا قصيدتين احداهما قيلت في أهل بدر والثانية في هجاء مسلمين هما عامر وعلقمة كما مر بنا ، ممـا يؤكد ان هجـــاء المسلم ممنوع ، وان من يهجو مسلماً ، ويثير هجاء في المجتمع الاسلامي ، يعتبر مخرباً ، يجب أن يمنع عن غيه ، ولن يكون إلا بقطع أداته ، أو على الأقل التهديد بقطعها وهي اللسان . فالمقصود المنع بحبس وتهديد وان لم يرتجع وتمادى في غيه قطع لسانه ، الذي يقطع به أواصر المجتمــع ومرشدنا في ذلك أمير المؤمنين عمر .

وهنا يعرض سؤال . كيف يهدر الرسول لسان شاعر مسلم ؟ ان المفحش في الهجاء كقاطع الطريق والسارق ، كلاهما مستغل لجارحته استغلالاً سيئاً، فكما تقطع يد السارق ، لأنه يستغلها فيما يضر ،كذلك يقطع لسان المفحش في الهجاء، لأنه يستغله فيما يضر ، إذ يتناول به الأعراض ، ويقطع الصلات ويبتز الاموال.

وإذا كان الرسول عليه السلام قـــد نهى عن الهجاء ، فلماذا حث شعراء

المسلمين عليه وشجعهم ، بل وأمرهم ، حيث يقول لحسان بن ثابت : « اهجهم اوهاجهم وجبريل معك » (البخاري : ٣٦/٨) . ويقول للشعراء : « أهجوا قريشاً فانه أشد عليها من رشق بالنبل » (مسلم : ١٦٤/٧) . وفي حديث آخر يقول : اهجوا بالشعر ان المؤمن يجاهد بنفسه وماله وفي رواية بنفسه ولسانه (مجمع الزائد : ١٢٣/٨) . ان الرسول عليه السلام حينما حث على هجاء المشركين والرد على شعرائهم ، كان في موقف الدفاع . والهجاء هنا ليس هجاء شخصياً ، وهو المنهى عنه لأنه يكون بين أفراد المسلمين ، مما يقطع أواصر الأخوة بينهم بل هجاء بعكس الصراع بين عقيدتين ومعسكرين ، انه نوع من الحرب النفسية ، فهو حرب كلامية ودعائية تمهد للحرب العسكرية ، ميدانها النفس والعاطفه ، وغرضها التأثير ، ووسيلتها حسن البيان . ولهذا قال الرسول الكريم : « جاهدوا المشركين بألسنتكم » والطابع الغالب على هذا الشعر ، كان العفة ، لا الفحش . فشعراء المسلمين كانوا يردون على شعراء المشركين تهمهم ويحاربونهم بالسلاح نفسه الذي شهروه . وهم هنا لم يخرجوا على الالتزام بقضايا الحق والشرف والخير لانهم يدافعون عن دينهم وعقيدتهم ، التي هي جماع الحق والشرف والخير ، انهم يدفعون عن تلك القيم جحافل الشر ، وألسنة السوء ، وأسلحة الدعاية المضللة وان استعملوا السلاح نفسه . وعلى هذا فهم في موقف الدفاع والانتصار من الظلم ، ومن هنا استثنى الله سبحانه شعراء الاسلام ، من صفات الشعراء الذميمة : فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا » فقد وصف الشعراء المؤمنين ، بأنهم انتصروا بعد أن ظلمهم المشركون وشعراؤهم فهم في هجائهم للمشركين ينتصرون من ظلم وقع عليهم ، ويدافعون عن أنفسهم ضد تقول ومهاجمة المشركين ، من غير اعتداء ولا زيادة . قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ... »

* * *

بقيت هناك اغراض اخرى للشعر . وهي التي يتحدث فيها الشاعر ، عن

همومه الشخصية ويتغنى فيها بآلامه وآماله ، بعيداً عن المجتمع والقبيلة وذلك مثل : الغزل ، والرثاء النابع من الصلات الشخصية ، لا العامة والشكوى والعتاب ، والوصف . ونستطيع أن نقول : ان هذه الأغراض ، لا تتعدى ذات الشاعر ، بخلاف الأغراض السابقة . فالمديح قصد به الممدوح ، فالمعنى به ذات أخرى ، والهجاء كذلك ، وقل مثل هذا في شعر الصراع . أما الغزل فالشاعر يعبر فيه عن إحساسه بالجمال ، واعجابه به ، وما أصابه من آلام الحب أو يصور في افتتان جمال محبوبته أو يصف بعض تجاربه الغرامية . وفي الرثاء يعبر عن حزنه الخاص على الفقيد . وفي الشكوى بنفس عن ضيقه وألمه . أما الوصف فيصور في إعجاب ما يحس وما يرى وكأنه يرضي نزعته الفنية الخالصة أو حاسة الجمال ونزعة الاعجاب والمشاركة .

مثل هذه الأغراض التي تعبر عن المشاعر الشخصية والإحساسات الفردية الخالصة ، هل انكرها الرسول إنكاراً تاماً ؟ كما تنكرت لها بعض المذاهب الضيقة ، بحجة الالتزام ، وكون الفن في خدمة الحياة . وذلك من موقف التوجيه الضيق . وهل ينكر الرسول ، وهو الإنسان العظيم دور المشاعر الانسانية وحاجتها إلى التصوير والتعبيروالمشاركة . ان الرسول عليه السلام قد أقر هذه الأغراض التي تعتبر تنفيساً عن العواطف ما لم تمثل انحرافاً أو تعكس عواطف ومشاعر منحرفة. فقد استمع النبي إلى الخنساء وهي ترثي أخويها حينما وفدت عليه مع قومها بني سليم . كما استمع الرسول عليه الصلاة والسلام إلىشعر الشكوى فقد مر بنا ان شاعراً جاءه وانشده شعراً يشكو فيه من امرأته المخالفة المعاندة وردد الرسول الكريم شطره الأخير الذي يصف فيه النساء ، وهو قوله : « وهن شر غالب إذا غلب ».

أما شعر الوصف ، فان قصيدة كعب بن زهير ، التي مدح بها الرسول ، يستغرق وصف الناقة جزءاً كبيراً منها . ولم ينكر عليه الرسول ذلك . وما أظن الرسول الكريم ينكر شيئاً ، لا يأتي من ورائه ضرر ما .

اما شعر الغزل ، والتعبير عن عاطفة الحب ، فان كانت العاطفة منحرفة غير سوية ، وإذا ما عبر عنها صاحبها ، ساعد على نشر الانحراف وأشاع التحلل ، وكان عاملاً من عوامل الفساد في المجتمع ، فهو ممنوع ومحارب ولهذا قال الرسول الكريم : « امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » (مجمع الزائد : ١١٩/٨) . وكل من درس الشعر العربي في العصر الجاهلي يعرف شعر امرىء القيس المنحرف الذي يصور فيه غرامياته ومغامراته النسائية، وتجاربه الحسية . ومن ذلك قوله :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة　　فقالت لك الويلات انك مرجلي

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً　　عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

فقلت لها سيري وأرخي زمامه　　ولا تبعديني من جناك المعلل

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع　　فألهبتها عن ذي تمائم محول

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له　　بشق وتحتي شقها لم يحول

فهو شعر يثير الغرائز الدنيا ويوقظ الشهوات ويشيع التحلل . ولهذا جعله الرسول حامل لواء الشعراء المنحرفين إلى النار . أما الشعر المعبر عن عاطفة سوية بعيداً عن الفحش ودغدغة الغرائز فلا ضرر منه ولا خطر ولا جناح عليه. ولهذا نرى الرسول عليه السلام يستمع إلى كعب بن زهير وقد بدأ قصيدته بالغزل وقد يقال : ان هذا الشاعر كان في أول عهده بالاسلام ، وجاء بتلك القصيدة معتذراً ، يعلن توبته واسلامه ، والرسول يريد أن يتألفه . ولكن شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام ، حسان بن ثابت يقول في مقدمة قصيدة يذكر فيها عدة أصحاب اللواء يوم أحد : (ابن هشام : ١٤٩/٢) .

منع النوم بالعشاء الهموم　　وخيال إذا تغور النجوم

من حبيب أضاف قلبك منه　　سقم فهو داخل مكتوم

بالقومى هل يقتل المرء مثلي واهن البطش والعظام سؤم

لو يدب الحولي من ولد الذر(م) عليها لا ندبتها الكلوم

شأنها العطر والفراش ويعلو هالجبين ولؤلؤ منظوم

لم تفتها شمس النهار بشيء غير ان الشباب ليس يدوم

وقد يقال : ان هذا الغزل – شأنه في ذلك شأن الوقوف على الاطلال لون من الأشكال الفنية التي كانت موجودة ، منذ العصر الجاهلي في مقدمات القصائد فينظر اليه باعتباره مقدمة فنية تكمل الشكل وليس تعبيراً عاطفياً مقصوداً . ولكنا نقول : ان الرسول عليه السلام ، لو رأى في ذلك خروجاً على الآداب ، لانكره ، ولو كان نظاماً قديماً متبعاً ، ولم يعكس تجربة . وإلا فهل كان الرسول ﷺ ، يستمع إلى هؤلاء الشعراء إذا بدأوا قصائدهم بغزل فاحش من غير انكار ؟.

وعلى كل فقد كان الغزل السائد في العصر الجاهلي هو الغزل الحسي الذي يصف اعضاء الجسد ومفاتن الجمال . وهذا من أعفه ومنه الذي يصف مغامرات الشاعر ، وتجاربه الحسية ، وقد أدان الرسول مثل هذا اللون كما قدمنا . أما شعر الغزل الذي استمع اليه فهو بعيد عن الفحش والاثارة تماماً حتى الذي يتحدث عن المحبوبة ويصفها منه ، عف غير مثير . ومن الممكن أن نرجع إلى النص الذي قدمناه فالشاعر يصف فيه محبوبته بالرقة والتنعم ويصف نفسه بأنه متيم بها ، وبأن الحب قد أصابه بالسقم ، وأطار النوم من عينيه .

* * *

وبعد . فنستطيع أن نقرر ؟ ان الرسول ﷺ ، أراد للشعر أن يكون

فناً كريماً، ملتزماً بقضايا الانسان النبيل ، فنا بناء في خدمة الحق والخير والعدل ، والمبادىء السامية الشريفة والصادقة ، لا ممتهناً ولا وسيلة تكسب أو متاجرة. واراد له – أيضاً – أن يكون سلاحاً في يد المؤمنين وأصحاب العقائد السامية ، يدافعون به ويناضلون ويتقون كيد ألسنة الأعداء وفصاحتهم .

وأراد للشاعر أن يكون حراً ومسئولاً ، شريفاً ومناضلاً ، عضواً في مجتمع الفضلاء والكرماء، وأراد له – كذلك – ان يكون مؤمناً صادقاً يعيش ويفعل ما يقول ، بحيث تكون مسئوليته نابعة من قلبه ومن ضميره ، وليست محض مجاراة باللسان والقلم ، فقد هاجم الله جل شأنه ، الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون ، لأنهم يقولون كذباً ورياء . ولا يقولن قائل : ان الشاعر إذا ما آمن بالشر ، واعتقد الانحراف وعاشه ، ودافع عنه بعاطفة جياشة – وهو في هذه الحال ، يقول ما يفعل وما يعتقد – خرج من دائرة الشعراء الذين هاجمهم الله في كتابه الكريم ، وكان ملتزماً صادقاً في التزامه . وذلك لأن الله سبحانه وتعالى ، استثنى وبين المستثنين بقوله : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ... » فبين نوع العمل الذي يمارس ويدافع عنه ويلتزم به . ثم ان الانسان الذي يصح ان يسمى بهذا الأسم ، لا بد وان يقف بجانب الحق والعدل والخير .

والرسول ﷺ ، بجانب هذا الذي اراده للشعر وللشاعر من الالتزام بقضايا الحق والعدل والخير لم ينس العواطف الذاتية الخالصة والمشاعر الفردية الخاصة ، وضرورة التعبير عنها . فالانسان كما هو ابن الجماعة يعبر عن مشاعرها ، ويدافع عن كيانها وعقائدها ، هو – أيضاً – ابن ذاته ، يعبر عن عواطفه ، ويتغنى بمشاعره ، بأفراحه واحزانه بشرط الا تكون تلك العواطف منحرفة تشبع الانحراف والفساد في المجتمع . بل لا بد من أن تكون تعبيراً عن عواطف نبيلة وفي صورة جميلة ، في غير خروج او اسفاف إذ من الممكن أن يعبر الشاعر عن

الحب وعن معاناته له ولكن بغير فحش . ومن الممكن أن يبكي ويرثي ، ولكن في صدق وفي غير خروج على التسليم بقضاء الله وقدره . ومن الممكن أن يعاتب بغير إقذاع او إيلام . بل ومن الممكن أن يمدح بغير كذب أو مغالاة وبسبب الخدمة العامة بلا نفاق أو رياء . ويكون الهدف منه حسن التقدير .

وهكذا قدر الرسول الكريم ﷺ الشعر حق قدره وأراد له وللشاعر منزلة سامية تتفق ونعمة المقدرة على التعبير ، التي وهبها الله جل شأنه .

نظرية الثورة والتنظيم

بقلم : حسنين كروم

حين بشر الرسول برسالته في مكة وبدأ يكتسب كل يوم عدداً من المؤمنين بها .. تحددت وبشكل حاسم نوعيـــة وطبيعة العلاقات بينه وبين كل القوى الأخرى . في قريش. وفي شبه جزيرة العرب وخارجها .. انها علاقة عدائية .. لأن الرسول يدعو إلى تأسيس نظام جديد يتناقض تناقضاً رئيسياً مع كل ما هو موجود ومطبق من انظمة ..

ان بقاء أي منهما يعتمد على فنـــاء الآخر . ذلك لأن جوهر الرسالة التي نزلت على الرسول والتي أخذ يبشر بها ويدعو لها تهدف إلى بنـاء نظام جديد يدعـو إلى تحرير الإنسان من الاستغلال الطبقي في عالم تدنت فيه انسانية الفرد بشكل أصبح فيـــه الانسان يتساوى مع الحيوان في قيمته .. نظام يحارب الاستغلال ولا يميز بين انسان وآخر بحسب الأصول الطبقية ودرجة الغنى وانمـا بحسب العمل وخدمة المجتمع وصلاح الفرد وايمانه .. نظام يطالب بأن يعيش كل فرد ويأكل من عمـــله ... وعمله فقط لا من استغلال عمل الآخرين .. ويطالب بتـأمين الفرد ومعاشه حتى ولو كان من غير المسلمين .. في زمن يحكمه التجار والمرابون .

ولهذا السبب فلقد كان الرسول مطالبـــاً بمهمتين رئيسيتين .. الأولى هي ضرورة النضال لهـدم النظام القائم وتدميره من اساسه .. والمهمة الثانية هي اقامة النظام الجديد الذي تبشر به الرسالة التي أنزلها الله عليه ..

ولذا فان العلاقـــات بين الطرفين كان محكوماً عليها ان تكون علاقات عدائيـة . وعلى كل طرف ان يصفي الطرف الآخر .. باختصار .. كان على الرسول أن يقـــوم بثورة شاملة مستخدماً سلاح « العنف الثوري » لمواجهة « العنف الرجعي » الذي شنته قريش ضد المسلمين الأوائـل ، وكانت أخطر المهمات أمام الرسول ﷺ هي مهمة الاعداد للثورة والتخطيط لها وتنظيمها ، ورسم استراتيجيتها وتحديد اطارات حركتها .. ولقـد اثبت الرسول فعلاً ، لا قولاً أو تعصباً ، انـه صاحب عقلية تنظيمية لا نظير لها .. وانه « منظم ثوري » لا يدانيه أحد .. اننا نعتقد ان أي محاولة لتفسير الانتصارات المدوية للمسلمين ستكون ناقصة مـا لم نبحث وراء الخطط التي مكنت للمسلمين من أن يستولوا أولاً على السلطة داخل شبه جزيرتهم .. قبل أن يقفزوا منها في حركة أسطورية ليهزموا أكبر امبراطوريتين كانتـــا تتحكمان في العالم ، امبراطوريتي فارس ورومـا .. ويسحقوا جيوشها .. ليقيموا امبراطورية جديدة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً .. لا في اتساع رقعتها ولا في درجـــة الازدهار الحضاري الذي حققته .

وسنركز هنا على جانب العمل التنظيمي الذي اتبعه الرسول . وسيكون التركيز على فترة معينة من تاريخ نضال الرسول وهي تلك الفترة التي تبـــدأ بذهابه إلى الطائف ليدعو فيها للاسلام ، وتنتهي بهجرته من مكة إلى المدينة .. لأن هذه الفترة هي التي شهدت أخطر وأهم مراحل التنظيم للثورة ..

التجربة الاولى

أصبح واضحاً الآن ان الدعوة وصلت إلى حالة اشبه « بالجمود » إذ كان لعمليات التعذيب الوحشي والارهاب الذي بدأت قريش تمارسه ضد المسلمين أثر واضح في وقف حركة المد التي حدثت قبل ذلك . وبات الرسول يتعرض شخصياً إلى الأذى .. لقــد انتهت مرحلة المقاومة السلبية التي كانت تتبعها القوى المعادية في مكة وبدأت مرحلة تسليط أكبر درجات الارهاب والاضطهاد ضد المسلمين .. وكان للنشاط الارهــابي أثر واضح في شل فعاليات المسلمين وديناميكيتهم وأصبحت الدعوة وما حققته حتى الآن من تقــدم مهددة بالتجمد والتقهقر .

وتقول الروايات التاريخية ان الرسول ﷺ أراد أن يبحث عن مكان آخر غير مكة ينشر فيه الدعوة ويكسب انصاراً جدداً .. فتوجه إلى مدينة الطائف يصحبه « زيد » ولده بالتبني . وتوجه أول مــا توجه إلى ثلاثة من رؤساء الطائف يدعوهم إلى الدين الجديد ، ولكنهم هزأوا منه قائلين « إذا كان لا بد لله أن يبعث رسولاً ، أو لم يستطع أن يجد من هو خير منك لحمل رسالته » .. فتحول عنهم الرسول ذاهباً إلى شوارع وطرقات المدينة داعياً الناس علانية إلى الدخول في الدين الجديد .. عارضاً دعوته عليهم .. فلم يلق منهم إلا ما هــو اسوأ ممــا لقيه من رؤسائهم الثلاثة .. لم يهزأوا منه فقط وانما القوا عليه الطوب وطاردوه حتى خارج المدينة وقد اصيب الرسول وسال منه الدم .. واشتكى إلى ربه وبكى ..

تلك باختصار هي الرواية التاريخية وهي لا تقدم لنــا أي تفسير موضوعي وحقيقي لأسباب ذهاب الرسول إلى الطائف .. لقد قلنا في البداية ان الدعوة

وصلت إلى ما يشبه الجمود .. إذ انتهت الآن حركة الانضمام الجماعي والمستمر إلى الدعوة خوفاً من الارهاب الشامل والوحشي الذي بدأت تمارسه القوى المعادية للمسلمين . وبسبب المقاومة النشطة لهذه القوى .. وكان استمرار حالة الجمود هذه يحمل تهديداً خطيراً بإنهاء الدعوة ، وفك الارتباط بين المؤمنين الجدد وتشرذمهم وانهيار ما تم بناؤه خلال السنوات الماضية .. ولم يكن أمام الرسول ﷺ للخروج من هذا المأزق غير طريقين .. الأول ان يلجأ إلى ما نسميه الآن « بالانقلاب المسلح » . إذ يقوم الرسول بقيادة المسلمين للقيام بعمل مسلح .. مباغت وسريع في مكة ليطيح برؤسائها ويفرض المسلمون سلطتهم بالقوة .. وهذا الاحتمال كان من الصعب تنفيذه لاعتبارات متعددة .. منها أن المسلمين لم يكونوا منظمين وأقوياء ومسلحين بشكل كاف يمكنهم من ذلك .. ومنها ان المناخ العام في مكة وغيرها لم يكن مهيأ لتقبل هذه القفزة المباغتة للمسلمين على السلطة .

وأما الطريق الثاني ، فكان ان تتبنى قريش ورؤساؤها الدعوة وتؤمن بها وتتولى هي بسلطانها وقوتها فرضها من « فوق » .. وهذا بدوره كان احتمالاً بعيداً لعدة اعتبارات جوهرية .. منها أن ذلك سيحول الرسول إلى مجرد « رمز روحي » أو « زعيم روحي » لا صلة له بالسياسة وبالسلطة وهذا يتنافى مع طبيعة وجوهر الرسالة التي لا تفصل بين الدين والدنيا والتي ما نزلت إلا لتهدم نظاماً وتقيم آخر .. أيضاً لم يكن ممكناً أن ينقلب تجار مكة ومرابوها إلى مسلمين .. لأنهم في هذه الحالة لن يغيروا ديناً بدين فقط وانما مطالبون بتبني وضع اجتماعي مناقض لوضعهم الطبقي..ولم يكن ممكناً أن تنجح الدعوة في الظروف التي كانت سائدة في مكة ، لا بواسطة انقلاب مسلح ولا بتبني السلطة في مكة للدعوة والعمل على فرضها فرضاً .. وفي نفس الوقت فلقد كان

السكوت على النتيجة التي وصل اليها المسلمون يعني بالتأكيد انحسار الدعوة من مجالها الضيق الذي انتشرت فيه وبالتالي نهايتها ..

ان هذه الاعتبارات كلها هي التي دفعت الرسول لأن يبحث عن حل آخر ينقذ به الحركة الوليدة من المصير الذي ستؤول اليه .. ومن هنا بدأ أول تحول « قدري » في تاريخ المسلمين ودعوتهم . دلل على قـــدرة مرسول في ابتداع اساليب عمل تنظيمية جديدة .. لقد كان ذهاب الرسول إلى الطائف جزءاً من المخطط الكامل الذي اتبعه في تنظيم الثورة والاعداد لها .. ان الهدف الحقيقي كان اقتناع الرسول التام بأن انقاذ الدعوة الوليدة لن يحدث إلا بانشاء قاعدة للثورة . يرتكز عليها المسلمون . ويقيمون فيهـــا نظامهم الجديد . ليكون نموذجاً يحتذى به .. وليتحول إلى مركز اشعـــاع .. وفي نفس الوقت يعطيهم القدرة على شن حرب لا هوادة فيهـــا ضد كل القوى المعادية لهم واسقاطها وتأسيس سلطة الثورة التي تمـد نفوذها على طول البلاد وعرضها وتنهي هذا التفتت القبلي .. لقد وجد الرسول ان لا مفر من خوض غمار نضال مسلح . واستخدام « العنف الثوري » لمواجهة موجة الارهاب الذي تشنه القوى المعادية على المسلمين .. لقد اصبح العنف ضرورة ، لا لمواجهـــة العنف المسلط على المسلمين ، وانما لاستخدامه ضد كل القوى التي ستقف أمام المسلمين في سبيل بناء نظامهم الجديد ..

ولن يتسنى للمسلمين أن يحققوا ذلك إلا إذا كانت لهم قاعـــدة رئيسية يتمركزون فيها ويحكمونها ويمارسون عليها سلطتهم فبذلك يتمكنون من دخول آفاق المرحلة الجديدة في نضالهم ..

ومن هنا ذهب الرسول إلى الطائف في محاولة منه لخلق « قاعدة ثورية » غير مكة . ولكن هـذه المحاولة باءت بالفشل كما اتضح .. وعاد الرسول من

الطائف إلى مكة . واعتكف مدة في بيته . ولم يؤد هـــذا الفشل إلى تخلي الرسول عن هدفه الرئيسي ولم يكن اعتكافه بسبب خوفه من الاخفاق الذي واجهه في الطائف ولما لقيه فيها من معاملة سيئة كما تحاول الروايات أن توضح لنا ذلك .. وانما نرى ان هذا الاعتكاف كان « للدراسة » .. نعم لدراسة تجربة الطائف وتقييمها وتحليـــل أسباب الفشل .. وفي نفس الوقت لتغيير أساليب العمل والتخطيط بحيث تكون أكثر فعالية .. ولقد خرج الرسول من اعتكافه بنظرية جديدة في التنظيم والاعداد للثورة .. مع عدم تغير هدفه الأساسي .. وهو خلق قاعدة ثورية ، وما يجعلنا نصر على رأينـــا هو أن فشل الطائف لم يؤد إلى تخلي الرسول عن سعيه لخلق قاعدة ثورية . بدليل انه شرع فعلاً في استئناف جهوده مرة أخرى حين حل موسم الحج .. جـــاء الحجاج من كل مكان في الجزيرة العربية إلى مكة ليزوروا كعبتها .. فوجد الرسول الفرصة سانحة ليدعو من جديد إلى رسالته .. أخذ يتنقل بين الوفود يدعوها للرسالة .. ايضاً لم يحقق نجاحاً .. وفي اليوم الأخير اجتمع مـــع ستة . وقيل سبعة ، من حجاج يثرب « المدينة » وأخذ يدعوهم لرسالته فآمنوا بها واقسموا أن يعملوا في سبيلها حين يعودون إلى مدينتهم .. هذا ما تقوله الرواية التاريخية .. وهي أيضاً لا تقدم لنا أي تفسير لحقيقة هذا العمل الذي لجأ اليه الرسول .. اننـــا نعتقد ان هذا الحدث – أي اقنـــاع ستة أو سبعة من حجاج يثرب – الذي ترويه الروايات فيـــه اخطر تحولات العمل التنظيمي للرسول في تاريخ الإسلام كله . وتكمن فيـــه كذلك كل دروس فشل الطائف .. وتكمن فيه أخيراً الاستراتيجية الجديدة للثورة والتنظيم .. ونجد لزاماً علينا الآن أن نتوقف قليلاً قبل ان نستمر في سرد بقيـــة الأحداث عند هذه النقطة .. ان السؤال الذي يطرح نفسه علينا هنـــا هو .. لماذا اختار الرسول حجاج يثرب بالذات ليركز عليهم ؟

وقد يقفز قائـــل ليقول لنا ان الرسول دعا وفوداً عديدة للدعوة الجديدة

لم يتقبلها الا حجاج يثرب .. لهذا فليس هناك سر أو مغزى خلف هذا العمل.. وهذا من الناحية السطحية قول سليم .. ولكنه قول مرفوض .. جملة وتفصيلاً. صحيح ان الرسول دعا وفوداً كثيرة من الحجاج وليس هؤلاء الستة أو السبعة من حجاج يثرب .. إلى رسالته .. ولكن لم يكن سعي الرسول إلى هؤلاء الستة أو السبعة من أهالي يثرب عملاً عشوائياً وخاضعاً للمصادفة وحدها .. انه عمل مقصود ، لقد اجتمع بهم بشكل شبه سري .. وركز على عدد محدود . لا كما فعل مع باقي الوفود حيث كان يدعوها علانية .. ان سرية الاجتماع ، واختيار التوقيت ليكون قبل عودتهم إلى يثرب.. يحمل دلالات كبيرة لا يمكن اغفالها . لقد استخدم الرسول قوته في الاقناع حتى جعلهم يؤمنون به وبرسالته ، بل وبالعمل على نشرها في مدينتهم .

ان دلالات وخصوصية اجتماع الرسول وتركيزه على أهل يثرب .. توضح لنا ان الرسول قد غير في خططه بعد فشل الطائف ورسم استراتيجية جديدة للتنظيم .

قلنا ان الرسول حين جاء من الطائف إلى مكة اعتكف في بيته ، وقلنا ان اعتكافه لم يكن حزناً على ما واجهه في الطائف وانما للدراسة والتحليل والتقييم وابتداع اساليب عمل جديدة .. فما هي النتائج التي انتهى الرسول إلى استخلاصها من تجربة الطائف التي رسم على ضوئها استراتيجيته الجديدة ؟..

لقد اكتشف الرسول ان الطائف لا يمكن ان تصلح « قاعدة ثورية » للمسلمين نظراً للعلاقات الوثيقة التي تربط بين تجارها وتجار مكة .. كما انها من الناحية الجغرافية لا تبعد عن مكة – مركز القوى المعادية – إلا بحوالي ٤٠ ميلاً إلى الشرق . وهذه المسافة القصيرة تجعلها غير مأمونة إذ يمكن لقريش مهاجمتها باستمرار وتجريد الحملات عليها بكثرة نظراً لقربها .

هذه أولى النتائج التي اكتشفها الرسول من عملية الطائف .. وأما ثانية

النتائج فهي خطأ اسلوب « التجنيد » الذي اتبع .. إذ ذهب الرسول بنفسه مباشرة إلى مجال معاد وغير مضمون دون أي اعداد أو تمهيد سابق .. وتولى عرض دعوته بنفسه ووسط محيط واسع بحيث استثار كل القوى المعادية وترك الباب مفتوحاً للهرج وللديماغوجية ، ولفرصة محاصرته واحباط دعوته بالشغب عليه وعدم اعطائــه فرصة الكلام والحديث وممارسة تأثيره عليهم .. ونحن لا نقول بأن الرسول قد توصل إلى اكتشاف هذه النتائج تخميناً وانما هي نفس ما انتهى اليه الرسول إبان فترة اعتكافه لأن خطته التي اتبعها مـع حجاج يثرب كانت مبنية على هذه النتائج .. لهذا لم يكن اختياره لحجاج يثرب عشوائياً أو وليد الصدفة وحدها .. لماذا ؟

ان يثرب بلدة غنية وتتيح امكانيات كبيرة من الناحية المادية . كما أنهـا تبعد عن مكة بحوالي ٢٥٠ ميلا أي انها ستكون في مأمن من الهجمات المتتالية والمفاجئة من مكة .. أيضاً فان يثرب تسيطر على طرق تجارة مكة مع الشام من جهة الشمال وهذا يعطي فرصة لتسديد ضربة قاتلة إلى مكة التي تعتمد على التجارة وقوافلها .. وفي نفس الوقت فان موقع يثرب يتيح فرصاً واسعة لشن الغارات في اتجاهات متعددة ، ويتيح فرصاً واسعة بالتالي للسيطرة على القبائل المجاورة لها .

ولكل هذه الأسباب والميزات التي تتوفر في يثرب اختارها الرسول لتكون قاعدة الثورة .. كذلك فاننا نلاحظ ان الرسول لجأ هــذه المرة إلى طريقة أخرى في عملية التجنيد وكسب الانصار . إذ انه لم يذهب بنفسه إلى يثرب كما فعل في الطائف .. لقد تخلى عن اسلوب العمل المباشر ولجأ إلى اسلوب العمل غير المباشر .. لقد كان اختيار يثرب عملا قدرياً . دل على عقليــة متناهية في ذكائها ، وعلى قدرة هائلة على التحليل والتخطيط .. إن اختيار الرسول ليثرب لتكون قاعدة للثورة تلاه تخطيط ذكي لأساليب العمل التنظيمي .. لقد اختار الرسول العمل في حلقات ضيقة ، وبشكل شبه سري . وهكذا كون أول

خلية. ان هؤلاء الستة أو السبعة من حجاج يثرب كانوا « جرثومة عدوى » قدر لها أن تهدم النظام القديم كله. كانوا أول خلية نجح الرسول في تجنيدها وتنظيمها من خارج مكة .. وقد حدد لهم مهمات واضحة هي ان يقوموا بالدعوة إلى الدين الجديد حين يعودون ليثرب ويكسبوا انصاراً جدداً . وكان هدف الرسول ﷺ هو نشر الدعوة بواسطة أهل يثرب أنفسهم فذلك اسلوب أكثر فائدة وأسرع في تحقيق نتائجه، لأنهم أقدر على معرفة بلدهم وظروفها وظروف أهلها وأكثر تأثيراً في اهلهم وأصحابهم ولن يستريب أحد فيهم .. هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى فان الرسول كان يهدف إلى أن يؤدي نشاط هذه الخلية وما تكسبه من انصار جدد إلى تهيئة الجو في يثرب للدعوة الجديدة وتقبلها وخلق مناخ مؤيد وصديق وغير معادي . وبالتالي فان صاحب الدعوة لن يذهب بنفسه ليعرض دعوته وانما يطلبه انصاره ليأتي لقيادتهم بعد أن يكون الجو قد تم تهيئته له .. ومثل هذا الاسلوب الذي اتبعه الرسول مع حجاج يثرب نرى أنه كان العمود الفقري لانتشار كثير من الدعوات والمبادىء .. فكثير من الدعوات انتشرت في بلاد بواسطة طلابها ومبعوثيها الذين يذهبون للدراسة في بلاد أخرى ويلتقون فيها بأصحاب الدعوات وحملة العقائد فيتولون اقناعهم بها وتجنيدهم حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم عملوا على نشر هذه المبادىء وتكوين الاحزاب والمنظمات التي تحمل لواء هذه المبادىء ..

وهذا ما حدث بالضبط في حالة حجاج يثرب ..

بدايات النجاح

وبعودة افراد أول خلية إلى بلدهم بعد انتهاء موسم الحج — وكان ذلك في مارس ٦٢٠ ميلادية — كانت الخطوة الأولى في خطة الرسول ﷺ قد نجحت

نجاحاً كاملا .. ومر عام كامل .. وحين حل موسم الحج الثاني تقابل الرسول مـع اليثربيين .. لم يكونوا ستة أو سبعة وانما كانوا اثني عشر رجلا .. اجتمع بهم سراً في واد ضيق في الجبال التي تقع على الشرق من مكة .. وأعلنوا ايمانهم به .. ثم عـــادوا إلى يثرب متأججين حماسة لنشر الدعوة .. ولكن الرسول خطا خطوة أخرى . إذ أرسل معهم واحداً من « اكفأ كوادره » من مسلمي مكة .. وهو مصعب بن عمير ليقوم بتعليم أهل يثرب مبادىء الدين الجديد .

إذن فقد نجحت العملية .. إلا أن الشيء الذي نود أن نؤكده هنا هو ان الرسول حين انفق مع الستة او السبعة من حجاج يثرب اعضاء اول خلية كونها من خارج مكة .. على أن يعملوا على نشر مبادى الدعوة بين أهل يثرب لا يعني انه ترك الأمور بغير تنظيم .. إذ لم يكن هناك أدنى ضمانات في ألا يرتد هؤلاء المؤمنون الجدد عن ايمانهم وعن وعدهم بالعمل على نشر الدعوة .. خصوصاً وان مرور عام كامل وهو المدة الزمية التي تفصل بـين موسم حج وموسم آخر ، كفيل بأن يوهن من عزيمتم ويقلل من اندفاعهم خصوصاً وانهم لم يتلقوا التعاليم كاملة ويتفهموها بعمق وعن معرفة كاملة بحيث يكونون دعاة على مستوى عال من الفهم والقدرة على الاقناع وعلى تجنيد آخرين.. كذلك لم يكن هناك أي اتصال مباشر أو غير مباشر بين الرسول وبينهم طيلة العام.وانعدام الارتباط التنظيمي يؤدي بالضرورة إلى تحلل أي جماعة وعدم انضباطها وترابطها وتشتت جهود أفرادها وفشلهم بالتالي .

ان الذي نريد أن نؤكده هو اعتقادنا الراسخ بأنه كان هناك نوع من التنظيم في هذه الخلية الأولى ونوع من توزيع مسؤولية العمل بـين أفرادها وربطهم بطريقة أو بأخرى ، كأن يكون الرسول قد عين لهذه الخلية مسئولاً من بـين أفرادها ، وقسم العمل بينهم بشكل يمنع تشتتهم ويضمن استمرار دفقة الايمان الأولى ليندفعوا إلى الدعوة بنفس الحماسة التي آمنوا بها . ان ما يعزز اعتقادنا

هذا هو أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يشرع في عمل كهذا علق عليه كل آماله وخططه ثم يتركه تحت رحمة الظروف والأقدار .. كذلك فان الرسول بعد نجاحه في تجنيد وتكوين أول خلية في يثرب قل نشاطه في مكة الى درجة أقرب ما تكون الى التوقف الكامل عن العمل . ليس لسبب إلا لأن أنظاره وعقله يتركزان الآن على هدف يتوقف على تحقيقه نجاح الثورة .. هو يثرب .. قاعدة الثورة المنتظرة ، ولهذا لا يمكن ان يترك الرسول هذا النجاح الأول الذي حققه تحت رحمة الظروف دون أي تنظيم .

وما نلاحظه هنا ... هو أنه في العام الثاني للحج وبعد أن جاء اثنا عشر رجلاً ، كان يعني أن الدعوة حققت نجاحاً أصبح يتطلب التركيز الشديد في العمل والتخطيط الكفء لإنجاحه ولاستغلال هذا النجاح.. لهذا لم يكن ممكناً أن يترك الرسول الأمر في أيدي المسلمين الجدد وحدهم ودون تنظيم أكثرفعالية ودقة .. إذ أن معرفتهم بالدين محدودة وزيادة عددهم مع انخفاض مستوى وعيهم سيؤدي حتماً الى إدخال تشويهات وتحريفات بفعل الاجتهادات الشخصية التي يمكن أن تحدث نتيجة للحوار بينهم وبين الذين يريدون تجنيدهم للدعوة الجديدة . خصوصاً مع وجود عدد لا يستهان به من اليهود في يثرب... كما وأن الصلة مقطوعة بين الرسول وبينهم . أي بين القيادة الايديولوجية وبين أنصارها الذين لم يصلوا الى مستوى كامل من الفهم والوعي ... وبالتالي فان هذا التطور أصبح يتطلب تعيين مسؤول موثوق في قدرته وتشبعه بأصول الدين الجديد وعلى دراية بأساليب العمل والتنظيم . ومن هنا تم ارسال مصعب بن عمير الى يثرب مع الاثني عشر مسلما ، ليشرف بنفسه على سير العمل وتخطيطه والتمهيد لمرحلة اخرى.. ومصعب كما هو معروف من أوائل من أسلموا في مكة ومعروف بفهمه العميق للدين . كما انه عاصر فترة الارهاب والاضطهاد الذي شنته قريش ضد مسلمي مكة وبالتالي فهو خبير بشتى أساليب العمل والتنظيم .. كما نرى في النهاية أن الرسول قد زوده بالتعليمات والخطط التي يلتزم بها في يثرب .

الانتقال الى قاعدة الثورة

ومضى عام آخر .. وجاء موسم الحج .. وقبـــل الموسم بعدة أيام حضر مصعب من يثرب الى مكة . واجتمـع على الفور بالرسول وقدم له تقريراً عن مهمته .. وحدثه عمـا أحرزه من نجـــاح .. لقد ازداد عدد المسلمين زيادة كبيرة ، وانتشر أمر الدعوة . وأمر الرسول بين أهل المدينة وأصبح الجو العام مؤيداً متشوقاً للرسول . إن المؤمنين أصبحوا الآن ينتظرون نبيهم العظـــيم ليتواجد بينهم ويقودهم .

ويبدو أن مصعب قبل حضوره الى مكة قد رتب اجتماعاً حاسماً بين الرسول وبين مسلمي يثرب.. ففي آخر يوم من أيام الحج، وبعد أن بدأت قوافل الحجاج تغادر مكة عائدة أدراجها الى بلادها .. وقبيل منتصف الليل بحوالي ساعة ، وتحت أشعة القمر الفضية كان رسول الله جالساً وبجواره عمه العباسي في منطقة بين الجبال ، هي نفس المنطقة التي سبق وقابله فيها حجاج يثرب .. وما هي إلا لحظات إلا وأخذت الأرض تنشق عن جماعات صغيرة .. كل جماعة تتكون من اثنين ، يأتون بطريقة متلصصة لا تثير أدنى شبهة.. كل اثنين يأتون يجلسون فوراً بجانب الرسول .. وبعد مدة صار حول الرسول ثلاثة وثلاثون رجلاً كلهم من أهل يثرب .. وبعد أن اكتمل العدد وقف الرسول وتكلم .. أعلن صراحة عن خطوته التالية ، صرح لهم بأنـــه سيترك مكة ليذهب الى يثرب فهل هم مستعدون لحمايتــه والنضال في سبيل الدين ونصرته وتحمل كافـــة التبعات المترتبة على ذلك ؟ وافقوا وأقسموا على حمايته وعلى النضال معه حتى الموت .

انفض الاجتماع .. وكما جاءوا ذهبوا .. كل اثنين معاً حتى لا يراهم أحد . تركوا مكان الاجتماع عائدين الى يثرب .

أخيراً نجح ما خطط له أعظم مهندس في تنظيم الثورات ، وما عمـل له بصبر ودأب عجيبين .. الآن أصبحت يثرب جاهزة كقاعدة ثورية للمسلمين .. لقد دنت الآن تلك الساعة الحاسمة التي كان ينتظرهـا الرسول بفارغ الصبر .. الساعة التي يتمركز فيها في قاعدة يشن منهـا نضالاً لا هوادة فيه لإسقاط كل القوى المعادية وتصفيتها — لا في مكة وحدها — بؤرة الاضطهاد الوحشي التي تعرض فيها الرسول والمسلمين لألوان من الأذى والإهانة لا يمكن وصفها — وإنما في كل جزء من شبه الجزيرة العربية حتى تسود سلطة الثورة كاملة ويقيم النظام الجديد حيث لا يتعرض الانسان فيه الى الاستغلال الطبقي والسياسي. ثم لينشر لواء الدين خارج حدود شبه الجزيرة .

وغادر الرسول مكان الاجتماع .. عائداً الى مكة .. يعمل الآن بهمة ونشاط لاستكمال آخر حلقة من حلقات الخطة .. فبعد أيام من هذا الاجتماع .. أصدر أوامر سرية الى المسلمين في مكة أن يتركوها مهاجرين الى يثرب بشكل فردي وبسرية دون لفت الأنظار إليهم ودون أن تحس قريش بذلك .. وبدأ تنفيذ هذا الأمر .. ولم يمر شهران إلا وكان كل مسلمي مكة قد هاجروا منها إلىالمدينة إلا الرسول وأبو بكر وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة ..

إن الكثير من المؤرخين يبدون إعجابهم بتلك الشجاعة النادرة التي أبداهـا الرسول حين قبل بالبقاء في مكة بعد أن مات عمه أبو طالب وأصبح لا يحظى بحمايته. وبعد أن تعرض للأذى والاضطهاد هو والمسلمون ويبدون إعجاباً أكثر لأنه لم يكن أول المهاجرين من مكة الى يثرب وإنما آخرهم .

وفي رأينا أن القضية هنا ليست قضية شجاعة وجرأة وتحـد فقط .. بقدر ما هي مسألة تنفيذ دقيق لخطة علمية مرسومة ومدروسة ويجري تنفيذهـا مرحلة بعد مرحلة .. ان نجـاح هذه الخطة كان يتوقف على السرية الكاملة .

وبالتالي فانها كانت تحتاج الى هدوء وبرود أعصاب، والى عقلية منظمة ومنضبطة.. لتضليل قريش وتركها غارقة في أحلامها التي هيأت لها أنها قضت بارهابها واضطهادها للرسول وللمسلمين على أي خطر من ناحيتهم . ان تجمدت الدعوة في مكة .. وغداً ستذوي وتموت .. إن عنصر المفاجأة هنا ضروري ولهذا عمد الرسول الى إحاطة خطته وعمله بالسرية دون لفت أنظار قريش إليه .. ونحن نعتقد ان الرسول لم يكن ممكناً أن يبادر بالهجرة أولاً لأن ذلك قد يعرض الخطة كلها للانهيار .. فهو في حاجة شديدة الى كوادره في مكة الذين أصبحوا مدربين أكثر من مسلمي يثرب.. وأكثر منهم فهماً ووعياً للدين الجديد، ولأنهم سيلعبون دوراً رئيسياً في عمليات التوعية ، ولأنهم كذلك أكثر تدريباً على أساليب التنظيم لما تعرضوا له من اضطهاد وارهاب .

أيضاً ، كان الرسول في حاجة إليهم لتعزيز قدرة المسلمين في يثرب ذاتها .. ولو ان الرسول قد هاجر أولاً لكان قدلفت الأنظار مبكراً ولضاع منه عنصر المفاجأة .. كان هناك احتمالان أحدهما مؤكد وهو أن تبادر قريش باعتقال كل مسلمي مكة لتمنعهم من اللحاق بالرسول، بل ولم يكن مستبعداً أن تتخلص منهم . وهنا ستكون خسارة الرسول جسيمة ومؤكدة .. وثاني احتمال هو أن تبادر قريش وعلى عجل بشن هجوم سريع على يثرب قبل أن تستقر الأحوال للرسول ..

ولهذا بقي الرسول في مكة حتى لا يلفت نظر قريش الى ما يجري تنفيذه سراً ليضللها بوجوده ، وحتى يشرف بنفسه على عمليات الهجرة .. ثم يهاجر هو في النهاية .. ليحقق عنصر المفاجأة ليشل قدرة قادة قريش وتفكيرهم ويثير البلبلة فيهم .

وهذا ما حدث بالفعل .. فبعد ان هاجر كل مسلمي مكة ، وشرعوا في بناء النظام الجديد في يثرب وبدأوا يستقرون ويكسبون القبائل المحيطة بهم

حتى احست قريش بعمق الكارثة التي ستتعرض لها ان آجلا او عاجلا . إذ لا مفر من ان يعمد المسلمون الى الهجوم على قريش وشن الحرب ضدها .. وقطع طرق تجارتها .. وتحولت بكل قواها الآن الى عمل يائس .. صممت على أن تغتال الرسول لتمنعه من الهجرة وقيادته المسلمين في يثرب .. فسدوا كل منافذ مكة وراقبوها مراقبة جيدة . عقد رؤساؤهم اجتماعاً خطيراً . انتهوا منه الى ضرورة قتل الرسول والتخلص منه ورسموا خطة ذكية .. يكونون جماعة من الشبان كل شاب يمثل احدى قبائل قريش . يتجمعون ليلاً . ويقتحمون بيت الرسول أثناء نومه في فراشه .. ويقتلونه وهو نائم .. وتكون كل القبائل بذلك قد اشتركت في قتله ويتوزع دمه بينهم حتى لا يستطيع بنو هاشم الثأر لقتيلهم من كل القبائل . ان ذلك يوضح لنا الى اي حد وصلت حدود الصراع بين الطرفين .

ان تجار قريش ومرابوها مصممون على تصفية الرسول جسدياً .. وهذا ليس إلا تأكيداً على عمق التناقضات بينها وبأن العنف بات السلاح الوحيد الذي يحكم العلاقة بينهم وبين المسلمين .

وفي الليل تجمعت مجموعة القتلة وتوجهت الى بيت الرسول.. اقتحمته وتسللت داخله شاهرة سيوفها وخناجرها . وصلت الى الفراش .. ها هو نائم فيه .. اذن بعدة ضربات سيتخلص كل المستغلين والتجار والمرابون من عدوهم اللدود.. ولكنهم صعقوا . فليس النائم في الفراش هو ما يريدون .. انه علي وليس محمداً ، أين ذهب ؟؟ وكيف ؟ وبأي وسيلة تسلل من منزله ؟

وسرى النبأ كالصاعقة في كل مكة .. لقد افلت الصيد الثمين .. وعلى النظام القائم ان يستعد لأيام مريرة وصراع رهيب .. لقد جن جنون قريش .. ارسلت السرايا والجماعات الى كل مكان . اعلنت الجوائز لمن يقبض على الرسول حياً او ميتاً . في محاولة جنونية لتمنعه من الوصول الى يثرب .

وفشلت كل جهودهم .. وتمكن الرسول ومعه ابو بكر من الوصول سالمين بعد مرحلة شاقة الى قاعدة الثورة التي اصبحت مهيأة الآن للقيام بعملها الذي اعدت له .. ان يتمركز فيها المسلمون ليشنوا منها نضالاً لا هوادة فيه ضد كل القوى المعادية لهم ، ليسقطوها وليفرضوا سلطة الثورة .. وبوصول الرسول ليثرب تحددت نهائياً نتيجة الصراع الدامي والمرير الذي خاضه المسلمون .. النصر للثورة التي خطط لها الرسول بعمل تنظيمي عبقري وفذ .

حسنين كروم

اسباب وفاة محمد

الحمى ... أم سم اليهودية ؟؟

بقلم : **عبد العزيز حافظ دنيا**

كانت وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، مفاجأة للمسلمين ، أطارت صوابهم ولم يصدقوا انه عليه السلام – الذي رأوه في الصباح – قد انتقل إلى الرفيق الأعلى . وشاركهم في ذلك عمر بن الخطاب ، الذي أخذته المفاجأة فراح يصرخ ويقول في اقتناع متزايد : « أن محمداً ذهب إلى ربه . ووالله ليرجعن كما رجع موسى بن عمران..ووالله لا يموت رسول الله حتى تقطع ايدي أقوام وألسنتهم..

وعاد المسلمون إلى صوابهم عندما سمعوا الصديق يصيح في جمعهم : « ايها الناس : من كان منكم يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ... ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » .

لكن كيف مات الرسول صلوات الله عليه . ؟؟ أبالحمى أم بسم اليهودية ؟؟.

لقد اختلفت الآراء في ذلك . وقد تركزت هذه الآراء حول سببين :

الأول : هو الشاة المسمومة التي قدمتها إليه زينب بنت الحارث ، زوجة الزعيم اليهودي (سلام بن مشكم) بعد فتح خيبر في شهر صفر سنة ٧ هـ/يونيو سنة ٦٢٨ م[١].

الثاني : هو مرض الحمى، خصوصاً وأن الأعراض التي انتابت الرسول ﷺ، كانت هي أعراض الحمى .. فأين الحقيقة فيها ، وأي السببين يؤخذ به ؟.

لو نحن أخذنا بالسبب الأول للوفاة ، وحاولنا دراسته فسننتهي إلى نتيجة مؤكدة وهي عدم استناد هذا السبب إلى الأدلة الكافية التي تقنع الباحث والدارس. لأن حالة الرسول عليه السلام الصحية بعد وليمة الشاة تكذب وتنفي أن تكون هذه الوليمة هي سبب وفاته ﷺ . وهذه الوليمة هي آخر مؤامرة يدبرها اليهود للتخلص من رسول الله ﷺ والدافع لها تلك الهزيمة التي لاقوها في خيبر والتي قضت على نفوذهم في بلدان شبه الجزيرة ، وأنهت كل تهديد كانوا يشكلونه على المسلمين من ناحية الشام . وبطبيعة الحال كان ذلك ضربة قاصمة عليهم ، فعملوا سريعاً للتخلص من النبي عليه الصلاة والسلام، ولجأوا الى السلاح الذي اشتهروا باستعماله في تاريخهم ، وهو سلاح الغدر والتآمر ..

وكما فعل اخوانهم بنو النضير من قبل ، عندما ذهب الرسول عليه السلام ، إليهم في السنة الرابعة من الهجرة – في شهر ربيع الأول – (اغسطس ٦٢٥) يستعين بهم في دفع دية قتيلين من بني عامر تنفيذاً للعهد الذي قطعوه على أنفسهم، تظاهروا بالإيجاب وقالوا: نعم يا ابا القاسم (كنية الرسول عليه السلام) نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ..

---

(١) أنظر : هزيمة خيبر في كتابنا : الاسلام دين الوحدة والتكافل الاجتماعي ، ط . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

ثم خلصوا نجيا في داخل أسوارهم ، وتركوه ينتظر أمام الأسوار مع أصحابه : ابو بكر وعمر، وعلي... وانهم لمنتظرون امام الأسوار ، إذ «بعمرو بن جحاش » اليهودي يصعد على سطح الحصن وهو يحمل حجراً ليلقيه على رأس رسول الله . فقد أجمعوا أمرهم في الداخل على ان يتخلصوا منه إلى الأبد– هذا الذي جاء يحرم عليهم الفجور والاستغلال وعمليات الربا الفاحش – ولن تسنح لهم مثل هذه الفرصة مرة اخرى . لن يجدوه ابداً على مثل حالة من الاطمئنان اليهم بلا سلاح ..

ولكن الله كشف تدبيرهم في التو لرسوله الكريم . فغادر عليه الصلاة والسلام ، مكانه مستأذناً لقضاء بعض الحاجات ، قبل تنفيذ مؤامرتهم . ومضى إلى المسجد يروي للناس ما كان . وهرع إليه صحابته .ثم زحف بهم وبالجيش وحاصرهم وضيق عليهم الخناق ، وأخيراً رضخوا لشروطه ، وجلوا عن ديارهم، وخرجوا لاجئين إلى اخوانهم في خيبر وفي الشام ، تشيعهم لعنة التآمر . وقد قص علينا القرآن الكريم في سورة الحشر خبر ذلك بقوله :

« هو الذي اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم ما نعتهم حصونهم من الله . فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين»[١].

كذلك اراد يهود خيبر ، ان يتخلصوا من رسول الله ﷺ ، بعد هزيمتهم المنكودة ، واتبعوا طريقة اخرى لتنفيذ مؤامراتهم ، عسى بها ان ينجحوا فيما فشل فيه إخوانهم من قبل. ولكي يضمنوا نجاح مؤامرتهم ، اظهروا لرسول الله، الرضا بما حكم به عليهم ، من ترك نصف الأموال لهم مقابل عملهم .. وهم لذلك قد اعدوا له ولصحبه وليمة ، اعترافاً بالجميل ، وإقراراً منهم بحق الضيافة ..

---

(١) كان اليهودي قبل رحيله ، يهدم بيته ويأخذ معه ابوابه وشبابيكه وما فيه من اخشاب ويترك سلاحه للمسلمين .. كما نصت عليه شروط النبي (ص) .

وقبل رسول الله رجاءهم .. وسرعان ما وكلوا أمر تجهيز الوليمة إلى زوجة زعيمهم المقتول (ابن مشكم) وأوحوا اليها ان تضع السم في ذراع الشاة المصلية (المشوية) وهي احب القطع لرسول الله .. يحب دائماً ان يأكلها .

وكما فضح الله تدبير إخوانهم (بنو النضير) ، كشف الله لنبيه عليه السلام ، غدرهم ، إذ انطق سبحانه وتعالى اللحم المسموم يعلمه بمؤامرتهم ، ولهذا لم يزدرد الرسول قطعة اللحم التي اخذها بل لفظها سريعاً ، بعكس « بشر بن البراء بن معرور »[1] الذي استساغ اللحم واكله ، فمات في التو . وقد سأل رسول الله ﷺ ، المرأة : « ما حملك على ذلك »؟ فقالت : « اتفقت مع قومي ، إن كنت ملكاً استرحنا منك .. وإن كنت نبياً فستخبر » .

وقد أعجب عليه الصلاة والسلام برد المرأة ، وكعادته دائماً الصفح ، صفح عنها ..

وهذه الرواية هي التي يستند إليها الذين يرجحون أن يكون سبب الوفاة هو السم . وقد وردت عن ابن اسحاق – في السيرة – التي قال فيها : « ان النبي صلوات الله عليه ، عندما مرض جاءته أم بشر بنت البراء لزيارته ، فقال لها الرسول ﷺ : « يا أم بشران هذا « الأوان » (المرض) من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر » .

ويبدو أن هذه الرواية غير صحيحة ، أو محرفه . ونحن نرى ان الوفاة لا يمكن أن تكون بسبب السم وما يدعونا إلى ذلك جملة اسباب :

---

(١) صحابي اشترك مع والده في بيعة العقبة الثانية . واشتهر بالرماية . وشهد بدراً واحداً والخندق والحديبية وخيبر . في روايات كثيرة – ومنها السيرة – أنه مات لتوه . بينما روايات أخرى انه مات بعد عام (انظر دائرة المعارف الاسلامية م – ٧) .

أولاً : ان محاولة السم وقعت قبل مرض الرسول ﷺ ، وموتـــه بحوالي أربع سنوات . .

ثانياً : ان الرسول ﷺ ، لم يزدرد اللحم المسموم – كما فعل بشر – بـل لفظه عندما ذاقه .

ثالثاً : وهو أهم الأسباب التي تدعونا إلى عدم الأخذ بهذه الحادثة ، كسبب للوفاة ، هو أن الرسول عليه السلام ، بعد الحادث لم تظهر عليه دلائل تشير الى ضعف صحته ، او اعتلالها . على العكس من ذلك فقد ضاعف عليـه السلام من الجهود التي يبذلها أكثر من ذي قبل... إن نظرة سريعة على الأعمال التي أنجزها عليه الصلاة والسلام ، بعد هذا الحادث تنفي وبشدة هذه الرواية :

أولاً : انه ﷺ ، بعد فتح خيبر قاد الجيش ثانياً وعاد إلى المدينة ولم نسمع عنه انه عليه الصلاة والسلام ، ركن إلى الراحة ، بل بالعكس ، بدأ كعادتـه يسهر على شئون المسلمين ، وكان يقضي طيلة نهاره وزلفا من ليلة مجتمعاً مـع صحابته ينظر معهم في أمر الدعوة وانتشارها ، وهو لذلك عكف على تحرير الرسائل وبعث بها الى الملوك ورؤساء البلدان يدعوهم فيها الى الاسلام : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك بـه شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فـان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » : (البقرة) .

وفي أثناء ذلك كان عليه الصلاة والسلام ، يستقبل أفواجاً عديدة من رؤساء القبائل ورجالهم ، هرعوا اليه من مختلف المناطق يعتنقون الاسلام . بعد ان لمسوا وشاهدوا عفوه ، وعدله ، ومجتمعه القائم على المحبـة . لا فرق فيه بـين رئيس قبيلة وبـين المرؤوس ، ولا بين أمير ووضيع ، وغني وفقـير ، وأبيض وأسود، ولا بين عربي وأعجمي ..لا فضل لأحد على الآخر إلا بتقواه وعمله..

عمله هو الذي يحدد له مكانه .. العمل وحده للغنى ، ولا شيء غير مـا قدمت يداه .. « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .. (الزلزلة) .

لا شك ان هذا الجهد الذي قام به صلوات الله وسلامه عليه بعد رجوعه من خيبر .. من سهر على تأمين الدعوة ، والنظر في شئونها .. وشرح مبادئها التي كان عليه الصلاة والسلام يقوم بشرحها بنفسه لكل وافد عليه لو لم يكن يشعر بنشاط دائم ما استطاع أن يقوم بجزء منه ..

ثانياً : رأيناه صلوات الله عليه ، في شهر ذي القعدة — من العـام نفسه — يخرج من المدينة على رأس ألفين من المسلمين وهم في عدة الحرب لزيارة مكة — تنفيذاً لعهد الحديبية — ودخل مكة بعد مسيرة اكثر من أربعمائة كيلو متراً . فلما دخل المسجد ، ورأى المشركين يطلون عليه من فوق الجبال قال لأصحابه : « رحم الله أمراء أراهم اليوم من نفسه قوة .. ثم استلم الركن وخرج يهرول ، وخلفـه أصحابه يهرولون .. وهكذا ثلاثة أطواف حتى ادى المناسك على خير وجه ..

فهل يستطيع رجل يأكله السم في بطء ، يسير على ناقته مئات الأميـال ، ثم يأتي بهذا الجهد وهو يؤدي مناسكه ؟؟ أظن لا ..

ثالثاً : لما عاد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، ماذا فعل ؟ .

جهز السرايا وأرسلها إلى القبائل العاصية ، فبعث سرية الى بني سليم ، وأخرى الى بني الملوح ، وثالثة إلى ضواحي فدك ، ورابعة الى بني عامر ، وخامسة إلى أقصى الشمال بعد وادي القرى .

ثم استأنف إرسال الكتب الى كسرى وغيره يدعوهم الى الاسلام[1] . ولما

(١) من المعروف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث ببعض رسله الى الملوك قبل هزيمة خيبر ، وأرسل البعض بعدها ، كدحية بن خليفة الكلبي الذي حضر خيبر ثم ذهب بالكتاب إلى الامبراطور هرقل .

جاءه خبر مقتل رجال (الخمسة عشر) الذين بعث بهم إلى ذات الطلح قرب الحدود الشامية لدعوة أهلها إلى الاسلام. ومن بعدهم خبر مقتل رسوله (الحارث بن عمير الأزدي) على يد شرحبيل بن عمرو الغساني – أمير بصرى – جهز جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة لضرب المعتدين وسار الجيش في جمادي الأولي سنة ثمان (اكتوبر ٦٢٩ م). وفي مؤته جرت المعركة المذكورة في كتب التاريخ .

رابعاً : بعد عودة الجيش من مؤته ، عزم عليه الصلاة والسلام على فتح مكة. ولذلك بدأ يندب المسلمين من كافة بلدان شبه الجزيرة للزحف بهم. ومكث على ذلك حوالي ثلاثة شهور ، وهو يعمل ليل نهار .. حتى اكتمل له عشرة آلاف مقاتل .. خرج بهم من المدينة راكباً بغلته ، وكان عليه السلام بكامل عدة الحرب وعلى رأسه « خوذة من حديد » . وسار بهم وهو صائم ، فقد كان الشهر ، شهر رمضان (٨ هـ) وهذا الشهر يوافق شهر ديسمبر سنة ٦٣٠م وهو شهر شديد البرودة – خاصة في الصحراء – وبرد الصحراء يهرىء الأبدان ويجمد الأطراف ، ولا يتحمله سوى الرجل القوي البنية المتمتع بالصحة الموفورة .

ثم رأيناه عليه الصلاة والسلام ، عندما وصل « مرّ الظهران » بالقرب من مكة يقوم بجهد شاق عنيف . ذلك أنه قام بتخميس الجيش ، وعين على كل جناح قائداً ومسئولاً عنه[1].

١) الميمنة ، وهي من فرسان بني سليم ، وقائدها خالد بن الوليد .

٢) الميسرة ، بقيادة الزبير بن العوام .

٣) القلب ، عليه عبيدة بن الجراح .

---

(١) من اسماء الجيش في ذلك الزمن : الخميس ، لانه كان يتألف من مقدمة ، وساقه، وقلب، وميمنة، وميسرة .. قالت يهود خيبر : يا مصيبتاه ، لقد جاء محمد والخميس معه .

٣) الطليعة ، وهي من الأنصار ، وقائدها سعد بن عبادة .

٥) الاحتياطي ، أو الساقة ، وكان مؤلفاً من عدة كتائب :

الأولى : كتيبة غفار ، وقائدها أبو ذر ..

الثانية : كتيبة بني أسلم ..

الثالثة : كتيبة كعب بن عمرو ..

الرابعة : كتيبة جهينة ..

الخامسة: كتيبة سعد بن هزيم ..

وعندما دخل عليه الصلاة والسلام ، مكة من (أذاخر) ، كان أول عمل له أنه أم الجميع وصلى بهم صلاة الشكر (ثمان ركعات من الضحى) . ثم دخل الكعبة وطاف بها ولم يغادرها إلا بعد أن حطم الأصنام ، وبعد أن خطب في الناس ، واعلن عفوه عن الذين اضطروه للخروج من مسقط رأسه تحت جنح الليل هرباً من أذاهم ..

ثم استقبل في اليوم التالي آلاف من قريش الذين شرح الله صدرهم للاسلام وكان منهم : صفوان ابن امية ، وعبدالله بن سعد بن أبي السرح ، والحارث ابن هشام ، وزهير بن أمية . هؤلاء الذين ارتدوا عن الاسلام ، وغير أحدهم (ابن سعد) في كتابة الوحي فعفا عنهم ، بعد أن أعلنوا توبتهم . كما عفا عن وفد النساء الذي حضر إليه بزعامة هند بنت عتبة – آكلة الأكباد –[1] وأم حكيم بنت الحارث وغيرهن ممن ضربن بخمرهن خيل المسلمين أثناء دخولهم مكة . يقول حسان بن ثابت :

---

(١) عرفت بهذا الاسم ، لأنها لاكت كبد سيدنا حمزة بعد مقتله في احد .

وبعد أن فرغ عليه الصلاة والسلام ، من مقابلة الوفود ، وإلقاء تعاليمه إليهم ، سار حوالي كيلو متراً لزيارة قبر عمه (أبو طالب) وقبر السيدة خديجة رضي الله عنها — هذه السيدة التي ناصرت الدعوة الإسلامية منذ نشأتهـا والتي أحبها أكثر ما يكون الحب .

وعند عودته — عليه الصلاة والسلام — جهز عدة سرايا وبعث بها الى المعابد المتناثرة في الوديان لتحطيم أصنامها . فذهبت سرية عمرو بن العاص الى هذيل فحطم صنمها (سواعا) واتجه سعد بن زيد الى مناة ، فكسر صنمها المسمى باسمها . وزحف خالد بن الوليد ، الى بني خزيمة ، ثم اتجه الى « نخلة » فهدم صنمها (العُزيّ) .

وعادت السرايا الى مكة استعداداً لجولة اخرى — كما سنرى — يقود زمامها قائد مكتمل الحيوية ، لم يظهر عليه منذ أن زحف بهـم من المدينة على ظهر بغلته أي إجهاد ، يل كان جم النشاط لدرجة أنه سرعان ما عبأ المسلمين ثانياً للحرب ، الذين زاد عددهم بأتباع أبي سفيان — بعد أن رضوا بالإسلام ديناً — فأصبحوا (إثني عشر ألفاً) . وتقدمهم زاحفـاً بهم في شهر ذي القعدة — أي بعد حوالي شهر من فتح مكة — لغزو الطائف . وفي مضيق حنين قاتل هوزان وثقيف قتالاً دامياً . وكان صوته الجهوري الذي يدل على الصحة القوية ، عاملاً حاسماً ، استطاع به أن يلم شمل الجيس المزق ويقوده ثانية الى النصر ..

خامساً — بعد أن قام عليه الصلاة والسلام ، بهذا الجهـــد الشاق ، فرض الحصار على الطائف ، وقذفها بالمنجنيق .. ولما هلت الأشهر الحرم التي لا يجوز فيها القتال ، فك الحصار عنها ، واتجه عليه الصلاة والسلام إلى موقع « الجعرانة »

لتوزيع الغنائم على المسلمين [1] ولاقى في ذلك عناء كبيراً لإرضاء كل فريق [2].

وبعد أن انتهى عليه الصلاة والسلام من ذلك ، اتجه بالمسلمين إلى المدينة . وهناك عكف عليه السلام، على إنشاء أول حكومة مركزية لتدعيم أمر الدعوة، والنظر في شؤون المسلمين ورعاية مصالحم . وكانت هذه الحكومة مؤلفة من عشرة أقسام :

الأول : قسم المغانم . لإحصائها وتوزيعها على مستحقيها .

الثاني : قسم إحصاء الثمر . ورئيسه ، حذيفة بن اليمان .

الثالث : قسم المداينات والمعاملات التجارية .

الرابع : قسم أموال الصداقات .

الخامس : قسم القضاء . وتولاه عبدالله بن نوفل .

السادس : قسم الترجمة . وتولاه ، زيد بن ثابت .

السابع : قسم تحرير الوثائق . ورئيسه ، عبد الله بن الأرقم .

الثامن : قسم كتابة المصحف .

التاسع : قسم التعليم وتحفيظ القرآن .

العاشر : قسم حملة الختم (ختم الرسول عليه الصلاة والسلام) . وأول من تولاه الحارث بن عوف .

---

(١) غنم المسلمون من ثقيف وهوازن : ٢٢ ألفاً من الإبل ، و٤٠ ألفاً من الشاة ، و٤ آلاف أوقية من الفضة ، و٦ آلاف من الاسرى .

(٢) عند توزيع الغنائم أعطى الرسول لبعض الطائفيين ، الذين رضوا بالاسلام دينا ، نصيباً كبيراً ومنهم قائدهم مالك بن عوف . فاحتج الانصار وقالوا : ألا ترون كيف يعطي الرسول الذين دخلوا الاسلام حديثاً ولا يعطينا إلا نصيباً عادياً ، وأقنعهم الرسول بما فعل فرضوا بحكمه .

وما كاد عليه الصلاة والسلام ، يفرغ من إنجاز هذه المشروعات حتى علم في السنة التاسعة أن امبراطور الروم (هرقـل) يستعد لحربه بعد أن شعر بنمو دولة الاسلام ... فرأى صلوات الله وسلامه عليه ، أن يبدأه بالحرب ..

وخرج بالجيش من المدينـة في شهر رجب ٩ هـ (سبتمبر ٦٣١ م) في وقت اشتدت فيه حرارة الصيف . جعلت المنافقين يحرضون الناس على عدم المشاركة في الحرب .

ولاقى رسول الله عناء كبيراً في إقنـاع الناس بالنفور معه . وبين لهم أن وساوس المنافقين شراً لهم وأن من يستمع إليهم مصيره جهنم خالداً فيها .

ولما نفى المنافقون ما أشاعوه بين المسلمين فضحهم القرآن بقوله : « وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » . (التوبة)

وقد كان باستطاعة الرسول عليه السلام ، ولو أنه كان يشعر بضعف في قوته أن يؤجل الخروج إلى ما بعد انتهاء الصيف شفقة منه على نفسه ، وعلى المسلمين . ولكنه ما كان يحس بضعف أبداً وإنما أقدم على ذلك لأنه كان يحس أنه لم يبق له في الدنيا غير وقت قصير . ولا بـد أن تتم هذه الغزوة لكي تتجه موجات الحركات الحربية الإسلامية الى الشمال . فإذا تركهـا وانتقل الى رحاب ربه ، فيكون بذلك قد خطط للمسلمين ما ينبغي أن يتابعوه عليه .

كان تعداد الجيش أربعين ألفاً « ثلاثون ألفاً » على رواحلهم يتقدمهم « عشرة آلاف فارس » وقطار طويل من الإبل يحمل الأمتعة والزاد والعتاد .. ساروا مخترقين الصحراء والرمال الملتهبة التي ما كان أحد يستطيع أن يلمسها . وكانت الريح ساخنة تلفح الوجوه . ومما زاد الطين بلة ، قلة الماء ..

وكان رسول الله اسوة حسنة للمحاربين ، فانه على الرغم من تحمله الكثير من المسؤوليات ، وهو شيخ جاوز الستين من عمره ، فانه لم توهن له عزيمة ..

وبعد مسيرة سبعة أيام وصل الجيش سالماً الى تبوك – على حدود الشام – لم يجد المسلمون فيها أي جندي روماني .. فروا مذعورين عندما رأوا المسلمين يسدون الصحراء بجمعهم الذي لم تشهد له الجزيرة مثيلاً من قبل .. واعتصموا داخل حصونهم ..

ورأى رسول الله أن يؤمن موقفه . فبعث بكتائب خفيفة الى المناطق المجاورة لإخضاع الزعماء المحليين .. فانضموا إليه عن رضى ، وعقد معهم أواصر الصداقة ، وكتب لهم كتب أمن وسلام ..[1]

ولما لم يظهر أي أثر للروم ، استجاب رسول الله لرأي عمر رضي الله عنه ، وعاد الى المدينة ...

عاد عليه الصلاة والسلام ، لا ليركن الى الدعة . وإنما عاد ليقوم بمجهود شاق .. مجهود استقبال الوفود التي تقبل بلا انقطاع تعلن الدخول في الإسلام... وتسأله أن يرسل معها من يفقه الناس في الدين.. لم تثر مناقشة مع أحد الوفود.. إلا الزكاة – ومن أجل ذلك عين عليه الصلاة والسلام ، حكاماً على القبائل والمدن البعيد ، وعين عمالاً على الصدقات لجباية الزكاة وتوزيعها على الفقراء .. من اليمن في أقصى الجنوب ... إلى نجران على حدود الروم .

وانتفضت بعض القبائل ، ورفضت الزكاة ، فأرسل عليه صلاة الله وسلامه الكتائب لإخضاعها .. وساق المسلمون الأسرى . وجاءت تميم بصلفها و كبريائها تنادي رسول الله بطريقة مستهجنة ، فوصمهم القرآن بعدم التعقل : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » . (الحجرات) . ومع ذلك

---

(١) من هؤلاء الزعماء يوحنا بن رؤبة – حاكم أيلة (ايلات) وحاكم الجرباء، وحاكم أذرع. وكانت الكتيبة التي عادت ورماحها تقطر دماء هي كتيبة خالد بن الوليد التي سارعت رجال حامية دومة الجندل ، وأسرت حاكمها (اكيدر بن عبد الملك) وقتلت شقيقه .

عفا الرسول عنهم ، وعن أسراهم ، وزودهم بالهدايا .. وكان لهذا العفو أثره في نفوسهم ، فعاهدوه على اداء الزكاة والسير على سنته ..

كما ثارت « مذحج » بزعامة الأسود العنسي الذي ارتد وادعى النبوة ، وعفا أتباعه من تأدية الزكاة . فأرسل عليه السلام من يؤدبه ثم قتله أنصاره وزوجه .. واتبعه مرتد آخر هو مسيلمة الكذاب .. متاعب لا حد لها لاقاها رسول الله ﷺ ، بعد هزيمة خيبر ومع ذلك تحملها دون أن يظهر عليه شيء ينبىء عن أي ضعف [1] .

وفي العام التالي (العاشر) خرج عليه الصلاة والسلام من المدينة في ٢٥ ذي القعدة بصحبة « مائة ألف مسلم » لتأدية فريضة الحج . وبعد أن أدى مناسك الحج معهم ، وقف عليه السلام في منتصف وادي منى ، حيث المسلمون في انتظاره .. وهناك ألقى عليهم بصوته القوي خطبته التشريعية التي بين فيها ما أحل الله لهم وما حرم عليهم . وأشهد الله عليه أنه بلغ الرسالة وأدى الامانة . وبذلك ختم عليه الصلاة والسلام ، حجته التي يسميها البعض : حجة الوداع ، وآخرون حجة البلاغ ، وغيرهم حجة الإسلام .

وما كاد عليه السلام ، ينتهي من كل هذا حتى انطلق إلى منطقة القبور فزار قبور أحبابه . ثم ودع عليه الصلاة والسلام مكة بما فيها من ذكريات عزيزة عليه ، وقفل مع أهله وأصحابه وأنصاره عائداً إلى المدينة .

الحمى ... السبب الوحيد

أما السبب الثاني الذي يذكره البعض ، والذي نرى أن الرسول عليه السلام ، مات بسببه فهو : الحمى .. وهو السبب الذي نميل إلى الأخذ به ،

---

(١) سمي هذا العام (٩ هـ) الذي استقبل فيه رسول الله هذه الوفود : (عام الوفود) .

واستبعاد أن يكون اللحم المسموم هو السبب .. وترجيح هذا السبب الثاني يستند إلى أسباب ومبررات موضوعية . لأن الأعراض المرضية التي صاحبت الرسول وأدت إلى وفاته تفرض ذلك .. وتقول الرواية التي وصلتنا [١] أن النبي ﷺ أصيب بالملاريا ، أو لعلها التليفود ؟.

وأن الأعراض التي انتابته ووصل خبرها إلينا والتي تؤكد انه مات بسببها هي :

أولاً – انه كان عليه السلام ، يحس في أثناء مرضه بحمى شديدة ، وكان يقاسي آلاماً معويه ، وآلاماً في الظهر . وقد قضت عليه هذه الأعراض سريعاً. وهذه الأعراض هي التي كانت تنتاب الكثرة في بلاد الشرق قبل ظهور التطعيم ضد الحمى المعوية . وقد كان هناك جميع الظروف التي تجعله عليه السلام يصاب بمثل هذا المرض .. فلقد كان العرب يشربون أي ماء موجود نظراً لندرته في الصحراء ، وكان هذا الماء معرضاً للتلوث .. وكانت بعض الآبار والبرك إن إن لم تكن كلها بؤرة للميكروبات المختلفة .. وقد سبق لرسول الله عقب صلاته في جوف الكعبة – بعد حجته الأخيرة – أن طلب ماء ليشرب ، ولم يكن هناك إلا ماء السقاية المنقوع فيه البلح والعنب ، والماء المخلوط بالعسل واللبن.. أعدّ ليشرب الحجيج منه – كالعادة المتبعة في وقت الحج [٢] – فالتمس الفضل ابن العباس منه – صلوات الله عليه – أن يصحبه إلى البيت حيث يوجد الماء النقي واللبن الصافي. ولكن رسول الله كان يحس بالعطش الشديد ، لذلك لم يشأ أن يذهب مع الفضل وشرب من الماء السالف الذكر . ولا يستبعد أن يكون

---

(١) انظر : كتاب الرسول . حياة محمد . تأليف ر. ف. بودلي .

(٢) آخر من تولى سقاية الحجيج من ماء زمزم المخلوط بما ذكرنا في الجاهلية ، العباس عم النبي وقد أقره الرسول (صلعم) - بعد اسلامه – على ما مضى من ولايتها .

هذا الماء ملوثاً مما سبب له الحمى .. ومات بعد ذلك بحوالي ثلاثة شهور (في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ — ٨ يونيو ٦٣٢ م على أرجح الأقوال) .

ثانياً — ينبغي ألا يغيب عنا أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام ، وهو شيخ جاوز الثانية والستين ، قد تحمل في هذه السنين ما لا يستطيع أن يتحمله الانسان العادي — فابتدأ جسمه يضعف ويعجز عن مقاومة الميكروبات التي كانت منتشرة بين العرب وقتذاك. وما كان اكثرها انتشاراً في ذلك الزمان...

رحمة الله وبركاته عليك يا رسول الله ، وما أطيبك حياً ، وما أطيبك ميتاً يا خير البشرية جمعاء...

الفهرس

الموضوع

